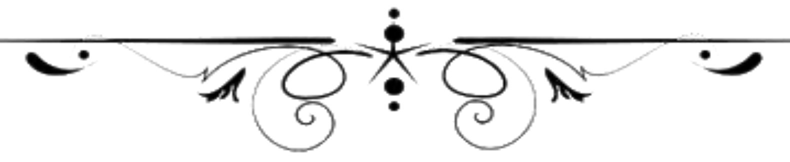
صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر



بحث تاريخي



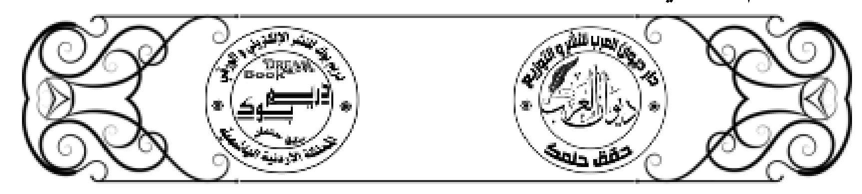
عنــوان الكتاب: صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر

اســـم المؤلف: د. محمد فتحي عبد العال

التصنيف الأدبي: بحث تاريخي

رقم الإيـــداع: 29288 / 2021

الترقيــم الدولي: 0 - 311 - 998 - 977 – 978



التدقيــق اللغوي: د. هبة ماردين **تـصميم الغلاف: شـيماء منـير**

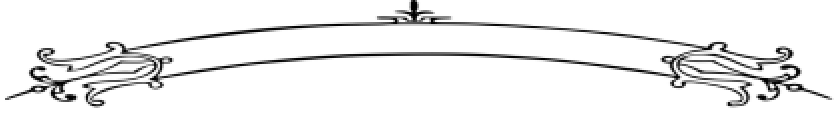
التنسيق الداخلي: محمد وجيــه **رقـــم الطبـعـة: الطبعة الأولـى**

المديــــر العام: د. فادية محمد هندومة

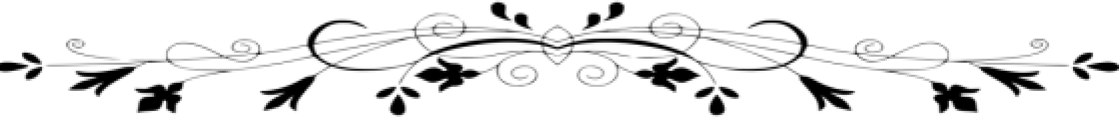
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع ـ مصر ـ بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com







صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر

بحث تاريخي

د. محمد فتحي عبد العال




بسم الله الرحمن الرحيم



إهداء

إلى روح أخي العزيز الأستاذ أحمد فتحي عبد العال الذي طالما حلم بأن يكون له كتابا في التاريخ يحمل اسمه... أحلام وأماني مشروعة حال بينه وبين تحقيقها المرض.

أهديه هذا الكتاب وهو في دار الحق راجياً أن يكون علماً نافعاً في ميزان حسناته، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (سبع يجري للعبد أجرهن وهو في قبره بعد موته: من عَلّم علماً، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورّث مصحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته).

حسّنه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع برقم :**3596**

د. محمد فتحي عبد العال

****

مقدمة

في صباي كنت لازلت لم أدخل المدرسة، وقد بلغت السبع سنوات ومع ذلك كنت تواقاً أن أسبق عمري فكنت دائماً ما آخذ كتب أخي الأكبر وكان أكبر مني بخمس سنوات ـرحمه اللهـ وأطالعها.. كان كتاب التاريخ للصف السادس الابتدائي وقتها مثيراً لي، صحيح لم أكن ملماً بالقراءة بالدرجة الكافية لكن الصور كانت كافية لتثير شهيتي للمعرفة التاريخية خاصة صور سعد زغلول ومشاهد ثورة عام **1919**، فبدأت أسأل وأفهم وأشاهد الأفلام التي تحكي هذه الفترة على التلفاز ودفعني الفضول لما هو أكبر، فقررت أن أقوم بالنشاط المدرسي بالكتاب بنفسي والذي تضمن ما نسميه اليوم البحث الميداني وسط المعمرين من الأهل عن ذكرياتهم عن ثورة **1919**. ولكن في دائرة إمكانياتي العمرية المتواضعة..

بالطبع لا يعرف هذه الأحداث سوى الأجداد وكان جدي لأبي ـرحمة الله عليهـ لا زال على قيد الحياة، وكنا عادة ما نقضي شهر رمضان معه بقريتنا فسألته عن ذكرياته عن ثورة **1919**؟! فبدأ يحكي لي قصصاً ممتعة عن الثورة والتضحية وصور الفداء، وكأنه من صُناعها أو أحد شهودها القريبين جداً. ومضت السنوات وكبرت ورحل جدي لكن ما قصه عليّ لازلت أذكره، وحينما أتيح لي أن أقرأ عن كثب حقائق هذه الثورة، وقد



أصبح جل مصادرها متاحاً، وجدت أن ما حكاه لي جدي كان مبالغاً فيه في أحيان كثيرة، كما اكتشفت أن سنه وقتها كان ثمانية أعوام، وهو عمر صغير لا يسمح بتمييز الكثير من الأحداث والتفاصيل، فضلاً عن أن الثورة لم تطرق أبواب قريتنا البسيطة!!... لا أتحامل على جدي الفلاح الطيب فالرجل ببساطته أراد ألا يخذلني وأنا طفل صغير، وحكى لي ما ربما سمعه ممن هم أكبر منه، وعايشوا هذه الثورة في المدن والقرى القريبة. لكن خرجت من قصة جدي بدرسٍ مهمٍ أن التاريخ حمالَ أوجه الكل يرويه بعلم وبدون، والكل يحن إلى الماضي السابق عليه وإن لم يعايشه ويحمله ما لا يحتمل من المثالية المفرطة والأخلاق العالية.

الصور عن الزمن الماضي دائماً براقة وجميلة، لأنها التقطت في أعلى درجات الاستعداد والجاهزية، الابتسامة فيها قد تكون من القلب وقد تكون مصطنعة، ويرقد خلفها خفايا وأسرار تتكشف حينما نعود للتاريخ كما هو نتنفسه كما تنفسه صناعه ومعاصروه وقتها سنعرف الحقيقة أو الصورة الأقرب للحقيقة بعيداً عن المثالية؛ فالمثالية غاية لا تدرك، وأن ترى الماضي على حقيقته كفيلٌ بأن تصحح أخطاءَه المتراكمة أمد الدهر، والتي نظنها وليدة اللحظة الراهنة..

إن ما أكتبه في هذه الصفحات هو مجرد دردشة أو لحظات من الصراحة النفسية والصدق مع الذات، ربما أحتاجها أنا أكثر من أي أحد آخر

وليست بهدف تقديمِ عملٍ أكاديميّ أو بحثيّ، أو لربط التاريخ بالعلم كما كان دأبي في الأعمال السابقة ولا سعياً لتغيير قناعاتك سيدي القارئ.
وسأعتمد هنا على مذكرات وكتب منها المتداول ومنها غير المتداول ووقع تحت يدي من باعة الكتب القديمة بما يحقق جلاء الصورة التاريخية ومصداقيتها قدر الإمكان، وبما يشبع الشغف التاريخي الخلاق.

والله من وراء القصد

د.محمد فتحي عبد العال

****



الحلقة الأولى

المواطن والكمسري

حمل لنا هذا العام (**2021**) حوادث مؤسفة كان مسرحها قطارات هيئة السكك الحديدية في مصر، وأبطالها المواطنين ومحصلي التذاكر وصفحات التواصل الاجتماعي، ونخص بالذكر حادثتين كانتا الأبرز على الساحة. شهدت الحادثة الأولى تنمر كمسري قطار (المنصورة -القاهرة) على مجند بالقوات المسلحة لعدم قدرة الأخير على دفع التذكرة وانتهت المشادة بينهما بتدخل سيدة لدفع ثمن التذكرة، ونالت التكريم اللائق من الدولة المصرية. أما الحادثة الثانية فكانت بقطار (منوف -طنطا) حيث وصلت المشادة بين الكمسري والراكب إلى حد صفع الكمسري للراكب أمام ابنته _بحسب شهادة الشهود_ وذلك لعجزه عن دفع غرامة مالية طالبه بها كمسري القطار، حيث استقل القطار لمحطة إضافية وقد نال الراكب تكريماً إنسانياً من رئيس الجمهورية الرئيس عبد الفتاح السيسي بدعوته للمؤتمر الأول لحياة كريمة.

دائماً ما يتبع هذه المشاهد _التي تكشف عن أزمة أخلاقية تجتاح المجتمع المصري_ حنين إلى الماضي؛ فندور نبحث بين جنباته عن أمثلة مغايرة لواقعنا ملئها الأخلاق الحميدة والمبادئ العالية، ونظن الماضي دوماً

واحة غناء لجنة باسقة عمادها ينابيع المثالية المفقودة الآن، لكن اللافت أن الماضي أحياناً يتمرد على رهاناتنا ويحمل لنا صوراً مماثلة وطبق الأصل لما نفر منه، والواحة التي ظنناها كانت في حقيقتها سراباً، ولتكن حوادث المشاكسات بين محصلي التذاكر والمواطنين مثالاً جلياً على ما نقول، ففي العدد **1932** من صحيفة المؤيد في **2** أغسطس **1896** يسوق لنا واقعة طريفة حدثت في **28** يوليو من نفس العام.

وقبل أن نمضي للواقعة لزاماً أن نعرف ما هي صحيفة المؤيد؟! والتي توارت عن الظهور منذ زمن بعيد وهي إحدى المحطات الأولى للصحافة المصرية الوطنية إذ أنشأها الشيخ علي يوسف في الأول من ديسمبر عام **1889** وهو الصحفي المقرب من الخديوي عباس حلمي الثاني، لتكون لسان حال الحركة الوطنية المطالبة بجلاء المحتل الإنجليزي، ولتكون في مواجهة صحيفة المقطم المدعومة من المحتل.

خلاصة الواقعة التي تنقلها لنا الصحيفة في صورة شكوى أن مشادة وقعت بين الراكب حسن بك عبد الرحمن أباظة -القاصد بندر الزقازيق- وبين مفتش التذاكر حامد أفندي حلمي -الغيور على قوانين المصلحة والمكدر لصفو راحة الركاب بحسب وصف الصحيفة-ذلك أن الراكب من فرط تعجله ركب من محطة أبو الشقوق (يقصد غالباً قرية أبو الشقوق التابعة لمركز كفر صقر بمحافظة الشرقية) دون تذكرة فأراد المفتش تحصيل



تذكرة طاق ونصف من المنصورة (غرامة مرة ونصف) فحاول الراكب بلطف إقناع المفتش أنه ركب من محطة أبو الشقوق مستشهداً بمصطفى أفندي رياض معاون محطة المنصورة والراكب معه، لكن المفتش رفض تفهم المسألة واحتدم الأمر وتطور إلى التطاول على مقام البك الراكب وعلى معاون محطة المنصورة بعبارات السفه والوقاحة من جانب المفتش بحسب الصحيفة، وتم رفع الأمر إلى إسكندر بك فهمي مأمور إدارة السكك الحديدية (تولى رئاسة مجلس إدارة السكك الحديدية بعد ذلك في الفترة من **1898-1905**).

الطريف أن الصحيفة ترصد أنها ليست المرة الأولى التي تحدث فيها مثل هذه الحوادث والأدهى أنها من نفس المفتش ولكن تجاه الشيخ أحمد الحملاوي أستاذ اللغة العربية في مدرسة المنصورة الأميرية ولمن لا يعرف الشيخ أحمد الحملاوي، فهو أديب وشاعر بارز وناظر مدرسة عثمان باشا ماهر لربع قرن من الزمان، والتي تقع في **19** شارع محمد كريم والمُتاخمة لقصر الأمير المملوكي "يشبك بن مهدي" وهي من المدارس التي تعكس النهضة التعليمية إبان عهد الخديوي عباس حلمي الثاني، حيث كان يتم فيها تدريس العلوم الدينية جنباً إلى جنب العلوم الحديثة، وللشيخ الحملاوي كتاب في البلاغة هو (زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع)، كان أحد أسباب عدم استكمالي للدراسة بمعهد الدراسات الصوفية لصعوبته.

نعود إلى موضوعنا والذي نرى العزاء فيه هو أن الركاب في الأزمنة القديمة والحديثة هم الطرف الأكثر تضرراً وفي الوقت ذاته الأكثر امتلاكاً لزمام أنفسهم فلا يقابلون الإساءة بإساءة مثلها، بل يسلكوا الطريق القويم في رفع شكواهم عبر الصحف قديماً ووسائل التواصل الاجتماعي حديثاً للجهات المختصة والتي يقع عليها المسؤولية في ضرورة إعداد السائقين والموظفين لديها فنياً وسلوكياً، ومراقبة أدائهم وضرورة وجود دورات تدريبية مستمرة لهم لطريقة التعامل مع الجمهور وكسب ثقته وعلاج المشكلات وفق أطر علمية ومهنية فالخصم من الراتب والنقل ليس علاجاً باتراً.

لا ينبغي أن نغض الطرف طويلاً عن مثل هذه المشكلات التي قد تقتل حرفياً الناس نفسياً وعصبياً ولنا في وفاة فيلسوف الرواية وفارس الرومانسية الأديب الكبير (محمد عبد الحليم عبد الله) أبو الجوائز وصاحب الروائع الأدبية كلقيطة وشجرة اللبلاب والذي توفي عام **1970** جراء خلاف مع سائق تاكسي كان يجهل شخصيته على خمس قروش فقط زيادة في الأجرة!! أدت لإصابة الأديب بنوبة عصبية وانفجار بالمخ مات على أثره.

****



الحلقة الثانية

قم للمعلم

واقع نراه كل يوم في مدارسنا من غياب دور المعلم المؤهل ولهثه في أثر الدروس الخصوصية وتردي الوضع الأخلاقي والمعرفي لدى النشء وسوء حالة المدارس، فنتحسر على زمن فات أنشد فيه أمير الشعراء أحمد شوقي قائلاً:

"قُـمْ للمعلّمِ وَفِّـهِ التبجيـلا. كـادَ المعلّمُ أن يكونَ رسولا. أعلمتَ أشرفَ أو أجلّ من الذي. يبني وينشئُ أنفـساً وعقولا".

فهل كانت صورة المعلم الملقى على عاتقه هذه المهمة الجليلة في الماضي تختلف عن واقعنا الحالي؟!

ضغطة زر على التلفاز لمشاهدة فيلم غزل البنات عام **1949** للعبقري نجيب الريحاني، ورؤية الأستاذ حمام الرث الثياب والذي يشكو حظه العاثر والمشاهد التي تجمعه بالطلاب في الفصل وضعفهم الواضح في اللغة العربية وتهكم الباشا وابنته على هيئته المتواضعة.. حتى تلقيب المعلم بكلمة "خوجة أفندي" وهي بالتركية تعني أستاذ تحولت مع الوقت إلى مسمى يقلل من شأنه وحوار السيد عبد الجواد مع ابنه كمال في رائعة نجيب محفوظ "قصر الشوق" دليلاً على ذلك.. ربما لا تعير عزيزي القارئ هذه المشاهد

انتباهاً ولا تعتبرها سوى مادة للضحك والفكاهة ولا تصلح مناطاً للحكم على العملية التعليمية في مصر إبان هذه الحقبة من تاريخها لكنها وللأسف كانت أصدق الصور عن واقع المعلم والعملية التعليمية برمتها والتي بدأت تتداعى.

وأنا بالمرحلة الإعدادية عام **1994** كان بالمدرسة معلماً قبطياً شديد الطيبة ومن شدة تسامحه وقع فريسة دائمة للتهكم من جانب الطلاب دفعته في النهاية للهجرة لكندا وترك مصر نهائياً لا يختلف المشهد كثيراً لو عدنا لعام **1873** ومع عودة الخديوي إسماعيل من الآستانة في صورة الفاتح المظفر بفرمان الامتيازات من الباب العالي فاستقبلته المدن المصرية بالزينات لمدة ثلاثة أيام، ونصب تمثال محمد علي في ميدان حي المنشية بالإسكندرية وكان طبيعياً أن يدفع الفضول الأطفال للمشاركة في هذا الحدث.

هذا ما يقصه علينا أحمد شفيق باشا السكرتير الخاص للخديوي عباس حلمي الثاني ومدير ديوان الأوقاف الأهلية سابقاً وذلك في مذكراته في نصف قرن وهو لازال طفلاً في مدرسة المبتديان (مكانها المدرسة السنية) التي كانت تحت إشراف ولي العهد آنذاك توفيق باشا..

حدث خلاف بين الطلاب وناظر المدرسة أحمد بك عبيد الطهطاوي أحد المتعلمين الذين أرسلهم محمد علي باشا لفرنسا في نفس البعثة التي ضمت



رفاعة الطهطاوي وعاد منها ضليعاً في الفرنسية ويمتلك جاموسة يحلبها للحصول على لبنها (كانت هذه هي الطريقة للحصول على الحليب الطازج بشكل يومي حتى أن بائع الحليب كان يصطحب جاموسته أو بقرته في الشارع ويتم الحلب على مرأى من زبائنه)

وتحت عنوان "أول إضراب في مدرسة أميرية" يستكمل شفيق باشا ذكرياته عن هذه الحادثة أن رفض الناظر لخروج الطلاب يوم الزينة وكذلك ضباط المدرسة دفعهم للتظاهر مرددين هتافهم ضد الناظر: "جاموسة طهطاوي تتكلم بالفرنسية"... هذه القصة وإن بدت بسيطة إلا أنها تكشف عن صورة من صور عدم احترام المعلم في شخص هذا الناظر والنكران لحرصه على استمرار العملية التعليمية وعدم انخراط الطلاب في اللهو والعبث ومما لا طائل منه ويتضح ذلك في موقف نظارة المعارف التي انتصرت لرغبة الطلاب على حساب احترام المعلم وأمرت بخروجهم لمشاهدة الزينات وهل يعلو أمر على زينات الخديوي!!.

نأتي إلى سؤال آخر: من منا في طفولته لم يتعرض لمضايقات بعض المعلمين؟! ومن منا لم يشكُ قسوة معلم في الفصل لوالديه؟! ومن منا لم يتلقَّ هذه الإجابة من والديه؟! "إن المعلم يتطلع لدرس خصوصي يا بني لهذا فهو يقسو عليك لدفعك لهذا الدرس"! الحقيقة أنها إجابة تلقيتها أنا أيضاً من أبي حينما شكوت له تهكم مدرس الرياضيات عليّ لوزني الزائد آنذاك.

لقد تعرض صليب باشا سامي السياسي القبطي البارز والذي تولى حقائب هامة كالخارجية والحربية والتموين والتجارة والصناعة لمثال من هذه المضايقات في طفولته، ففي مذكراته يحكي عن موقف تعرض له وهو طالب بالمدرسة التوفيقية وكان مقرها قصر النزهة بشبرا من مدرس اللغة العربية المنوفي المنشأ وكان "فظ الطباع عنيف العبارة مع الطلاب"، والطفل صليب بالأخص فكان "يخصه بأدنى الدرجات" وينصحه بعبارات على شاكلة :"طبعاً هو أنت فالح روح ألعب مع النسوان وأعمل لهم خدام كمان وبعدها تسقط في الامتحان ويبقى ينفعوك النسوان في آخر الزمان".

شكوى صليب لوالده جعلته يحتوي الموضوع بجلب الشيخ لإعطاء دروس خصوصية لابنه الصغير الذي كان متوقد الذهن، فأراد اختبار سلامة ذمة الشيخ ذات يوم فاستغل سهو الشيخ بأن طلب منه كتابة موضوع إنشاء سبق أن طلبه منه في المدرسة ومنحه عليه أربع درجات من ست عشرة درجة فإذا بالطفل صليب يقدم له صورة طبق الأصل مما كتبه في السابق وحصل على هذه الدرجة المتدنية نتاجه فإذا بالشيخ يعطيه هذه المرة عشرة درجات؛ فكشف الطفل للشيخ أنه نفس الموضوع، فلما رفعت درجته من أربع درجات بالمدرسة إلى عشر درجات بالدرس الخصوصي الآن؟!! فكان تعقيب الشيخ غاية في البرود: "وهل تظن أنك تستحق حقاً عشر درجات إنما أردت أن أشجعك فحسب".



لم تكن الدروس الخصوصية بهذه السهولة فكان يتوجب على المعلم أن يأخذ إذناً من وزارة المعارف العمومية على استمارة "طلب ترخيص بمباشرة أعمال خارجة عن حدود وظيفة المستخدم" مع إقرار من ولي أمر التلميذ بموافقته على إعطاء الدرس بمنزل الطالب أو بمنزل المعلم.

أما عن وسائل العقاب قديماً في الكتاتيب والمدارس، فهي قاب قوسين أو أدنى من كونها وسائل للتعذيب والإرهاب لا للتقويم والإرشاد، ففي مذكرات الأديب والصحفي والمحامي (محمد لطفي جمعة) والتي حملت عنوان (شاهد على العصر) يتحدث عن الجريدة والزخمة كأدوات تعذيب "لا تهذيب الأطفال" مما ترك أثراً سيئاً في نفسه لا يمحى ودفعه للهروب من الكتاب مرات عدة والانتحار بوضع طرف ثوبه على نار الكانون!! كما يتحدث عن الظلم الذي تعرض له ذات مرة لضحكه على أمر ظنه من قبيل النكتة فيقول: "صمم شيخ اسمه أبو الشدائد أن يعاقبني بالضرب مائة مرة على كفى لأنني ضحكت عندما سمعت للمرة الأولى لفظ كان وأخواتها"

ومن الضلعين الأساسيين في العملية التعليمية المعلم والطالب وعلاقتهما نتطلع للضلع الثالث، وهو المحتوى العلمي والعملية التعليمية برمتها.

في كتابه "مبادئ السياسية المصرية" والصادر عام **1942** يكشف محمد علي باشا علوبة والذي شغل منصب وزير المعارف عام **1936** عن عوامل الفشل داخل المنظومة التعليمية بداية من المدارس الإلزامية التي بدأت

منذ وقت مبكر عام **1917**، حينما كان عدلي يكن باشا يشغل وزارة المعارف لمحو الأمية فالمدارس تبنى على عجل دون تدريب للمعلم وإعداد كافٍ له؛ ولأن هذه المدارس كانت تقدم الحد الأدنى من التعليم لطلابها الفقراء وبعدها ينطلقون لمساعدة أهليهم إلا أنها لم تنجح في إخراج هؤلاء الأطفال المساكين وهم سواد الأمة من وضعهم المزري إلى واقع مغاير وهو ينقل عن وزارة المعارف تقريرها عن حالة هؤلاء الأطفال:

"حالة مؤلمة ومثيرة للنفس لما يبدو على هؤلاء الأطفال من بؤس يبعثه الفقر والجوع والحرمان ويزيده ضعف البنية وتغلغل الأمراض الفتاكة. ويضاعف بؤسهم ما تراه في أيديهم وفي ملابسهم من القذارة التي تشمئز منها النفس وما تشاهده على وجوههم من دلائل النفور من الدراسة والرغبة في العمل". إضافة لذلك لم تكن هذه المدارس تخصصية بالشكل الذي يواكب بيئة الطالب سواء أكانت صناعية أو زراعية أو تجارية حتى تفيده في حياته العملية لذلك كان من رأي الباشا إطالة مدة الدراسة لتكون من ثلاث سنوات لخمس سنوات "وتكون السنتان الأخيرتان للتخصص في المعلومات الأولية لبيئة الأطفال بما يعود بالفائدة على الطفل ووسطه".

كما يتحدث الوزير السابق عن فشل الوزارة في تقرير نظام محدد للتعليم الثانوي أسوة باستقرار النظام الابتدائي وتحديد مدته ونظامه "فهو محل تجارب وعرضة للتغيير والتبديل" ومن حسن حظ الباشا أنه لم يعاصر



زماننا لوجد أن النظام بأكمله صار مضرب الأمثال في التجريب بين الإبقاء على الصف السادس الابتدائي أو إلغائه وتحويل الثانوية العامة من سنة واحدة لسنتين والرغبة في تحويلها لثلاث سنوات ثم العودة بها لسنة واحدة!!.

كما يتحدث عن حشو المناهج بما لا يفيد الطالب في مرحلة من المفترض أن يضيف فيها لمعارفه وثقافته العامة في الرياضة والأخلاق والقيم فإذا بالوزارة تثقل كاهله بموضوعات ماذا عساه أن يصنع بها كاللوغاريتم مثلاً؟! فيقول متحدياً: "وإني أتحدى كل شخص يمكنه أن يثبت لي أن واحداً من ألف تلميذ يعلم بعد خروجه من المدارس الثانوية في دور الثقافة معنى اللوغاريتم مثلاً ما هو؟ وما الغرض منه؟"

كم كنت مندهشاً وأن أقرأ عبارات الوزير التي تستغرب أهمية اللوغاريتم فهو نفس تساؤلي تماماً وأنا في المرحلة الثانوية لكني زدت على ذلك الرغبة في معرفة لماذا أدرس الدالتين الجيب وجيب التمام والتوابع ظل (ظا)، ظل تمام(ظتا)، قاطع (قا)، وقاطع تمام (قتا)؟!! وأحاول أن أفهم مغزاها وفائدتها لي إلى حد أن قررت أن أرجع لكتب تدريس اليونسكو للرياضيات الحديثة في مصر في السبعينيات لأفهم من أين نشأت؟! فوجدت أكواماً من المثلثات زادت الأمر أمامي تعقيداً وجعلتني أغادر الرياضيات بشكل كامل دون عودة.

الأكثر أهمية في هذا الكتاب ما أشار له الباشا من ضعف تدريس اللغات الأجنبية في مصر "وأن المتخرج عاجزاً عن التعبير عن آرائه البسيطة وغير قادر على أن يكتب خطاباً بأية لغة" وهو أمر مستمر إلى يومنا هذا وإذا أضفنا لذلك جمود اللغة العربية والذي أشار له شفيق باشا في مذكراته في نصف قرن أصبح تشخيص الداء واضحاً فيما يتعلق باللغات وضرورة تطوير سبل دراستها والإلمام بنطقها الصحيح والتعود على ممارستها بالمدرسة وخارجها وضرورة اختزال قواعد النحو والإملاء الخاصين باللغة العربية.

الملاحظ في هذا الكتاب أنه يقص نسخة كربونية من واقعنا التعليمي فجمود اللغة العربية وصعوبتها وضعف الطلاب في اللغات الأجنبية وازدحام الفصول وضعف البنية الصحية للطلاب وهي مسائل بات من الواضح أننا تركناها وغيرها دون حل فظلت تتراكم مع الوقت حتى وصلنا إلى ما نحن فيه من جمود. بطبيعة الحال كانت إجادة اللغات من شروط الالتحاق بالوظائف وزيادة الرواتب فهل تعلم عزيزي القارئ أن راتب السائق في الجيش الإنجليزي طبقاً لإعلان عام **1918** عن الحاجة لمائة سائق كانت **3** جنيهات مع الأكل والملابس والمبيت في أكواخ وخيام أثناء التدريب بمدرسة السواقة في الزيتون لكنها تزيد بعد التدريب لتصبح من **6-10** جنيهات شريطة اجتياز الامتحان التحريري للغة الإنجليزية.



لذلك فالحلول واضحة وهي إعداد المعلم والإنفاق على تعليمه أولاً وتدريبه وتزويده بالأساليب العصرية للتعامل مع الطلاب وإرشادهم بعيداً عن الضرب والعنف وأن تهدف المناهج الدراسية إلى تعليم الطالب أساليب البحث وليس الحفظ والتلقين وأن تكون كافية لتزويده بالمعلومات الأساسية والقيم والأخلاق والمبادئ التي تصنع منه فرداً نافعاً وتعينه على التفاعل مع مجتمعه وليس تكديساً لعلوم من كل حدب وصوب مكانها هو مرحلة التخصص في الجامعات والمعاهد العليا وإننا أحوج في هذه الفترة لالتماس هذه السبل مع شيوع الجرائم البشعة بين أوساط المتعلمين تعليماً عالياً فما فائدة التعليم إن لم يعالج مشاكل المجتمع الحقيقية ويلبي احتياجاته؟!

وفي ختام مبحثي هذا أود أن أشير أن أكثر فترات التعليم استحقاقاً للدراسة وتسليط الضوء عليها في وجهة نظري كباحث وكواحد من هواة اقتناء الكتب القديمة في مطلع القرن الماضي وهي للأسف مصدرنا الآن للوقوف على حال التعليم في الماضي نظراً لندرة الدراسات في هذا المضمار هي فترة حكم الملك فؤاد والتي امتدت من **1917** وحتى عام **1936** .

فقد كان الملك فؤاد شغوفاً جداً بالعلم والمعرفة ومتابعاً لكل ما هو جديد بأوربا وشديد العناية بتدريب المعلمين والمعلمات والاهتمام بتدريس الأخلاق في المدارس فنجد كتاباً للأخلاق للأستاذ أحمد أمين مقرراً على

الطلبة عام **1929** وقد استعرضته بشكل تفصيلي في كتابي "مرآة التاريخ" كما نجد كتاب "الرحلة العلمية لناظرات المدارس الأميرية إلى أوربا "في صيف عام **1926** بقلم سنية عزمي ناظرة مدرسة المعلمات الأميرية ببولاق وبرنامج الرحلة تضمن دراسة جغرافيا العالم والجغرافيا الداخلية. قد تبدو لك عزيزي القارئ أن الجغرافيا ليست بكل هذه الأهمية للذهاب لأوربا للاطلاع على مستجداتها ولكن ستدهش حين تعلم أن أي كتاب عن منابع النيل كان يسارع الملك فؤاد للعناية به وترجمته وتدريسه إضافة أن الأطلس المدرسي كان يطبع بمعرفة جورج فلب بلندن كما يظهر من غلاف الأطلس الابتدائي في طبعته الأولى عام **1926** بإشراف ومعاونة محمد عوض إبراهيم بك ومحمد فهيم بك بوزارة المعارف العمومية كما عقد المؤتمر الجغرافي في إبريل عام **1925** بحضور الملك فؤاد وأحمد زيور باشا رئيس الوزراء ومندوبين عن فرنسا وإيطاليا وأمريكا واليابان فيما لم توجه الدعوة لألمانيا مما أثار سخطها والطريف أن لغة هذه المؤتمرات كانت الفرنسية والإنجليزية والإيطالية وسط غياب للغة العربية لغة البلاد الرسمية والسبب واضح أن الملك فؤاد لم يكن يتقن اللغة العربية لغة البلاد التي يحكمها!!.

البعثات الخارجية شملت كافة التخصصات حتى الطهي فنظيرة نيقولا صاحبة أشهر موسوعة للطهي كانت في بعثة بجامعة جلوستر بإنجلترا في



فنون الطهي وشغل الإبرة وذلك عام **1926** ولا ننسى زيارة الملك فؤاد للدارسين من المصريين بجامعة مانشستر ببريطانيا عام **1927** والوقوف على أحوالهم.

وضع ومكانة المرأة في عهد الملك فؤاد بصورة عامة وصل إلى حد الإعجاز فمتابعة بسيطة لأعداد مجلة العروسة التي صدرت في الثلاثينات وهي من إبداعات (إسكندر مكاريوس) صاحب مجلة (اللطائف المصورة) الشهيرة قد تكشف لك وجهاً لمصر لم تعرفه من قبل ففي عددها في **13**مايو **1931** نتعرف على شموس النهضة الصحيحة في مصر وفتيات مصر الناهضات المسافرات إلى أوربا لتحصيل العلم بإنجلترا تتصدرهم صورة المربية والأديبة (منيرة صبرى) مفتشة التربية البدنية في وزارة المعارف العمومية في ثوبها الرسمي الخاص بكبيرة المرشدات وفي **19** أغسطس **1931** نتعرف على السباحة الماهرة (حياة صفوت) ورحلتها الجريئة للسباحة من دمياط لرأس البر وفي عددها في **11** أكتوبر **1933**، تتعرف على أول مصرية تحرز شهادة طيران دولية وهي (لطيفة النادي).

ولا ننس الرائدة الموسيقية ومعلمة البيانو التي جابت أنحاء مصر لتعليم البيانو (ماتيلدا عبد المسيح) صاحبة ألحان مارش الملك فؤاد والذي غنته التونسية (حبيبه مسيكه) الذي تقول في مطلعه:

"ملوك الملوك يدوم علاك
أمل الوجود هو رضاك
الله يزيدك في بهاك
للأمة في كل الدهور
في عز دايم وصفو تامم
مولانا يا صاحب الجلالة
يا من ضمنت لنا العدالة
رب الكرم رب البسالة
عصرك يفوق كل العصور
في علم زاهر ورقي باهر
يحيي الملك ويدوم صفاه"

المثير أيضاً في هذه الفترة السعي نحو مكافحة العامية فنرى كتاب "الخلاصة المرضية في الكلمات العامية وما يرادفها من العربية لتلاميذ وتلميذات المدارس" بقلم عبد الرؤوف إبراهيم رئيس مدرسة محمد سعيد الأولية الأميرية بالبغالة وسيد علي الألفي رئيس مدرسة السلحدار بالجامع الأحمر



عام **1924** فنرى المادة العلمية مقسمة قسمين أحدهما للبنين والآخر للبنات وموضوعة في جداول: الكلمة العامية بالجدول مثلاً "أجزجي" وما يرادفها بالعربية "صيدلاني" ثم تطبيق عليها "أعطاني الصيدلاني الدواء".

وجه الملك فؤاد عناية بالغة بالفنون فأنشأ المعهد الملكي للموسيقى العربية عام **1921** كما استضاف مؤتمر الموسيقى العربية برعايته والذي أقيم بالقاهرة عام **1932** وعزفت فيه فرقة العقاد الكبير وفرقة الآنسة أم كلثوم (غنت أم كلثوم للملك فؤاد والملك فاروق وسعد زغلول، ثم لجمال عبد الناصر وأنور السادات فهي تجسيد للفن القابل للتكيف في كل زمان!!)

كما أنشأ مدرسة تحسين الخطوط الملكية عام **1922**، والسبب في ذلك يكشفه مصطفى بك غزلان رئيس التوقيع بديوان جلالته في عدد الهلال بتاريخ أول نوفمبر **1935**، من أن "الانقلاب التركي قضى على الخط العربي في تركيا" وهو ما يوضح أن كثير من خطوات الملك في هذه الفترة كانت لتحقيق حلمه بأن تصبح مصر عاصمة للخلافة الإسلامية ويصبح هو خليفة المسلمين!!.

الرسم أيضاً وتعليمه كان له كتاب فنجد كتاب تعليم الرسم في المكاتب العامة للتعليم الإلزامي وضعه أحمد شفيق زاهر أفندي وحبيب جورجي أفندي طبعة وزارة المعارف العمومية **1935**.

التصوير الفوتوغرافي أيضاً حظى بالاهتمام ولعل أبرز الأدلة على ذلك مصور الملك (رياض شحاته) والذي درس التصوير الفوتوغرافي بفرانكفورت وله كتاب (التصوير والحفر علمي وعملي) عام **1924**، وجاء على غلاف الكتاب " الذوق السليم والإحساس الدقيق قوام كل فن جميل".

هذا الاتجاه في تمصير التصوير الفوتوغرافي كان مبعثه ندرة المشتغلين بهذا الفن من المصريين واشتغال الأجانب به مثل الإخوة عبد الله أو عبد الله فرير وهم ثلاثة من الإخوة العثمانيين ذوي الأصول الأرمينية وهم أصحاب الصورة الشهيرة للخديوي توفيق وهو يمتطي جواده وقد افتتحوا فرعا بمصر نزولا عند رغبته.

كما كان لمصر السبق في دراسة علوم البحار عبر سفينة الأبحاث المصرية (مباحث) والتي قامت برحلتين الأولى مع بعثة "جون مري" إلى المحيط الهندي في الفترة من ديسمبر **1933**م وحتى مايو **1934**م. والثانية مع البعثة المصرية إلى البحر الأحمر في الفترة من ديسمبر **1934**م إلى فبراير



1935م. وكان الملك فؤاد حفياً بهذه البعثات والرحلات والأبحاث التي تنطلق من مصر وتنشئ جيلاً مصرياً متعلماً وناهضاً.

الحقيقة أن هذه الحقبة في وجهة نظري كانت أنجح فترات التعليم في مصر ونتاجها نراه في شكل المتعلمين وتمكنهم من مهامهم بإتقان كامل على مدى فترات زمنية طويلة لاحقة ويكفي أن نعلم أن أول دواء للبلهارسيا أنتجته شركة باير الألمانية عام **1929** حمل اسم الفؤادين تكريماً لجهود الملك فؤاد في دعم التعليم والبحث العلمي بمصر..

ومع هذا التقدم العلمي أصبحت مصر قبلة للمتعلمين فنجد محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط والمدرس بمدرسة الفلاح بجدة وناسخ المصحف المكي قد حصل على دبلوم مدرسة تحسين الخطوط العربية الملكية بمصر وتأثراً بالكتابات المصرية وضع كتاب (تاريخ الخط العربي وآدابه) عام **1939** ومن أطرف ما جاء بهذا الكتاب صراحة كاتبه واعتذاره المسبق عن أي خطأ قد وقع فيه لعدم أهليته للتأليف واشتغاله بمفرده وقلة المراجع وكثرة الاشتغال وتبلبل البال!!

ومن الحاصلين على دبلوم هذه المدرسة أيضاً رشيد عمر سنبل مندوب الحكومة العربية السعودية للخرائط بمصلحة المساحة المصرية وصاحب أول خريطة سعودية للحرمين الشريفين.

ولا ننسى أما وقد تعرضنا لهذه المسألة الطبيب والشاعر والفلكي ولاعب الشطرنج المغربي (عبد السلام بن محمد بن أحمد العَلَمي) الذي تلقى تعليمه في المدرسة الطبية بمصر في عهد الخديوي إسماعيل، ومنها نشر العلم ببلاده. أما حان الوقت لنعيد أمجادنا في التعليم والتربية؟!.

إن الوقت لا يزال أمامنا لتعود المدرسة بيتاً للحياة كما كان يسميها أجدادنا الفراعنة "بر عنخ " وأن يصبح المعلم على الدرجة الكافية من التدريب والكفاءة للقيام بمهمته المقدسة ووقتها نرى لمقولة أمير الشعراء صدى في بلادنا.

****



الحلقة الثالثة

قم للمعلم 2

المثير في التاريخ المصري هو قدرة الأعمال السينمائية في فترة ما بعد ثورة **1952** على تشويه كل ما قبلها ومحو تراث هذه الفترة، فيكفي أن تسأل أي شاب في مقتبل العمر شاهد هذه الأفلام أو كهلاً يعود ميلاده لهذه الثورة وتفتح ذهنه في مدارسها على القومية العربية عن شكل المعلم الأجنبي في مصر في فترة الاحتلال البريطاني لمصر والتي استمرت أكثر من سبعين عاماً ليجيبك من وحي هذا المشهد السينمائي من فيلم بين القصرين وطلبة مدرسة الحقوق يريدون الخروج للاشتراك في ثورة عام **1919** وناظر المدرسة المستر والتون منتفخاً كالديك الرومي ينهرهم في شدة واستعلاء فهل يصلح أن نختزل كل ما قدمه المعلمون الأجانب في هذا المشهد؟

ثمة أمر آخر عمل على تأجيج نظرة الكراهية للمدرسين الأجانب وهو مئات الكتب التي كتبها معتنقو الفكر السلفي عن حركة الاستشراق في مصر فوصموا كل من سكن هذه المدارس والجامعات المصرية من الأجانب في هذه الآونة بالاستشراق والتبشير والخطط الأجنبية لمحو الهوية الإسلامية وكأننا كنا وقتها نقود الأمم في العلم والتكنولوجيا الحديثة!!

والحقيقة أنني أريد أن أهمس في آذانهم بسؤالين.

السؤال الأول: لمن يعود الفضل لفكرة أول معجم لألفاظ القرآن الكريم؟! أليس للمستشرق الألماني (جوستاف فلوجل) تحت عنوان "نجوم الفرقان في أطراف القرآن" وعنه نقل وطور وصحح علماء مسلمون أجلاء.

السؤال الثاني: لمن يعود الفضل في تحقيق التراث الإسلامي القديم؟ وسأضرب مثالاً بكتاب تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري وهو عمدة كتب التراث فكانت طبعته الأولى بجهود المستشرق الهولندي (دي خويه) في المجمع الشرقي في ليدن بين عامي **1879** و**1901** وهي مسألة شاقة لمن يفهم ماهية تحقيق التراث والبحث عن الأصول بين المتاحف المختلفة ومقارنتها ومعالجتها وعن هذه الطبعة توالت الطبعات لهذا أعتقد أننا بحاجة لمزيد من الإنصاف لجهود الأساتذة الأجانب.

نبدأ من المشهد السينمائي الشهير نستجلي حقيقته ففي صباح يوم **9** مارس **1919** دوى نفير المظاهرات في شوارع مصر للتنديد باعتقال سعد زغلول باشا ورفاقه وهم في طريقهم لحضور مؤتمر الصلح المنعقد في باريس على أمل الحصول على الاستقلال المنشود مع إعلان الرئيس الأمريكي ويلسون الشهير بحق الدول المحتلة في تقرير المصير.

أراد طلبة مدرسة الحقوق المشاركة فنهاهم عبد العزيز باشا فهمي وهو من صناع الوفد ورفاق سعد خشية ازدياد الوضع اشتعالاً وقال لهم: "إنكم



تلعبون بالنار دعونا نعمل في هدوء ولا تزيدوا النار اشتعالاً"، كما حاول المستر والتون ناظر المدرسة إقناعهم بالعدول عن الفكرة فلم يذعنوا له فاستدعى على عجل نائب المستشار القضائي موريس شلدون إيموس فنصحهم قائلاً: "دعوا السياسة لآبائكم"، فرد عليه الطلبة: "لقد سجنتم آباءنا ولن ندرس القانون في بلد يداس فيه القانون". والحقيقة أني لا أجد مبرراً لتجاهل الحادثة من الناحية التربوية، وفي إطار الحفاظ على العملية التعليمية وسلامة الطلاب بعيداً عن الانخراط في تظاهرات لا يحمد عقباها وهو منظور الوفد أيضاً وليس إنجليزياً فقط.

العلاقة بين المدرسين الأجانب والطلاب المصريين كان يسودها الاحترام في جلها ففي مذكرات "صليب باشا سامي" الذي تحدثنا عنه في الحلقة السابقة يتحدث عن ذكرياته في المدرسة التوفيقية وعن ناظرها مسيو (تيوفيل بلتييه) وفي ذلك يروي قصة طريفة على غرار مدرسة المشاغبين فطلبة من المدرسة يسرقون ثمار اليوسفي من حديقة الناظر فتلمحهم ابنته (جيرمين) والتي تسرع لتخبر أباها والذي يجمع الطلبة في الحصة ويطالبهم بالاعتراف مقابل العفو عنهم فالتزموا الصمت ولكن الناظر كان ذكياً، فراح يشم أيديهم واحداً تلو الآخر حتى عرف الجناة فألقى عليهم درساً قاسياً في الأخلاق لكن ما بهر صليب أنه في نهاية اليوم وجد ضابط المدرسة قد حضر وفي يديه ثمار اليوسفي هدية من الناظر للطلبة ومعها رسالة عفو عنهم.

يجيب عن سؤالنا بوضوح ما جاء في مجلة (اللطائف المصورة) في **30** إبريل **1917** حول تكريم طلبة الفلسفة في الجامعة المصرية لأستاذهم الأسباني (الكونت دي جلارزا) أستاذ الفلسفة العامة العربية في حديقة فندق شبرد وكان ضمن الحضور سعد باشا زغلول.. لا تظنني عزيزي القارئ قد أخطأت في الكتابة وأن العكس هو الذي حدث بل هو ما قرأته تماماً فالطلاب يكرمون أستاذهم عرفاناً بفضله وجميل صنعه وفي هذا علقت المجلة على الخبر بقولها: "إن تكريم طلبة الجامعة المصرية لأستاذهم الفاضل خير قدوة يقتدي بها تلاميذ مدارس مصر وإظهار فضلهم ففي القول المأثور من علمني حرفاً صرت له عبداً".

الحقيقة أن الصورة الأخيرة لها من واقعنا نصيب ففي السنوات الأخيرة وجدنا الطلاب أكثر وفاءً لمعلميهم ممن يغرسون القيم والمبادئ فيهم وحينما تحين لحظة الرحيل ينطلق الطلاب في أثر نعوشهم ويغرسون على قبورهم أزهار من الوفاء ولمثل هذا فليعمل العاملون.

كان للأساتذة الأجانب وجود في كل ميادين العلم تقريباً حتى التربية البدنية في المدارس ففي عدد اللطائف المصورة في **24**سبتمبر **1917**، جاء نعي الأستاذ إميليو بوكوليني الذي قضى أكثر من ثلاثين عاماً في التربية الجسمية الحقيقية للتلاميذ في المدرسة التوفيقية الأميرية، ثم أنشأ مدرسة خاصة به.



وعلى غرار ذلك تبارى الوطنيون في تقديم دروسهم فقد حملت أعداد اللطائف المصورة عام **1929** دروس علمية في التربية البدنية الصحية بقلم البطل المصري والعالمي السيد محمد نصير أفندي أول مصري وعربي يفوز بميدالية ذهبية في الدورات الأولمبية.

ليسمح لي القارئ أن أشير لنقطة هامة أما وقد جاء ذكر اللطائف المصورة في أكثر من موضع في هذا المقال فدور الصحافة هو أن تسلط الضوء على النماذج المضيئة في المجتمع وأن تلتزم هذا الخط كأحد مبادئها لكن الطريف حول هذه المجلة الأدبية التي أنشأها عام **1915** اللبناني إسكندر مكاريوس استكمالاً لمشروع أبيه شاهين بك في مجلة اللطائف أن المجلة حادت عن هذا الطريق القويم حينما انخرط صاحبها في سجال عقيم وبعبارات لا تستقيم مع رسالة المجلة مع الصحفيين المصريين منتصراً لأبناء جلدته بقوله: "يكفي اللبنانيين فخراً أنهم اخترعوا اللبنة بالزيت ومسبة الدين". وهو ما أبرز من خلاله ضرورة وجود صحافة تعليمية محايدة ذات أيديولوجية واضحة مقصدها النشء والمختصين والجمهور لإطلاعهم على كل مجريات العلم وطرق التعليم وصور نشر القيم والمبادئ حول العالم.

نعود لموضوعنا الرئيس.

بزوغ نجم الجامعة المصرية عام **1908** أثمر عن تحولات جذرية في العملية التعليمية في مصر، فساهم الأساتذة الأجانب بدور كبير لا يمكن لعاقل إغفاله في بناء جيل من المتعلمين المصريين حملوا مشاعل الريادة في تخصصاتهم اتفقنا أو اختلفنا مع مشاريعهم وكان الأساتذة الأجانب سباقين في بناء ما نعرفه الآن بالتعليم المفتوح فالمحاضرات مفتوحة لمن يريد التعلم بغض النظر عن خلفياتهم وانتمائتهم الحزبية والدينية فذاع صيت محاضرات الاقتصاد السياسي لجرمان مارتان وآداب اللغة الإنجليزية لشارل سيسيون وآداب اللغة الفرنسية لمسيو بوفيليه والمحاضرات النسائية للأستاذة (أدولفين كوفورو) إضافة لعلوم الفلك عند العرب وتاريخ الآداب العربية وكان يلقيهما المستشرق الإيطالي (كارلو ألفونسو نلينو)..

اجتمعت للجامعة المصرية الوليدة كل عوامل النجاح والبقاء من حيث رغبة الأهالي في تعليم أبنائهم تعليماً عصرياً فسارعوا للاكتتاب فيها ووعي النخب المثقفة لأهميتها في إرساء دعائم الحضارة في الشرق مثل جورجي زيدان ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وقاسم أمين ورعاية سامية من الأسرة الحاكمة وقتها فتبرعت بالأرض الأميرة فاطمة إسماعيل حتى يكون لها مقراً ثابتاً حيث كانت المحاضرات تلقى في أماكن متفرقة ويعلن عنها بالصحف وآخر هذه الأماكن كان سراي الخواجة (نستور جناكليس) ولارتفاع قيمة إيجار السراي عرض الطبيب الخاص محمد باشا



علوي على الأميرة وكان تبرعها المحمود. كانت الجامعة في مقدمة أولويات الأمير أحمد فؤاد الذي ترأسها شرفياً - الملك فؤاد فيما بعد- المولع بالعلم والثقافة والذي سعى لإمداد مكتبتها بالكتب من كل أنحاء العالم وبخاصة إيطاليا التي كان على علاقات جيدة مع الأسرة الحاكمة بها بحكم نشأته هناك..

إحقاقاً للحق كان الأساتذة الأجانب أكثر تسامحاً مع طلابهم المصريين فيما يتعلق بالاقتباس الجزئي أحياناً والكامل أحياناً لأعمالهم دون الإشارة لهم.. وهو ما لا يمكن أن تجده في عالم اليوم الذي يتبارى فيه الكتاب في كيل الاتهامات لبعضهم البعض في السرقة حتى ولو كانت السرقة في غث لا يسمن ولا يغني من جوع.

فنجد تأثراً واضحاً للشيخ (على عبد الرازق) بأفكار المستشرق نلينو في مسألة الخلافة (أشرنا إليه آنفاً حينما تحدثنا عن علوم الفلك)، حينما وضع كتابه "الإسلام وأصول الحكم" لذلك فحينما يتحدث أحد حول التشكيك في نسبة هذا الكتاب لصاحبه الشيخ علي وأنه من وضع طه حسين أجد أن الرد الأقرب للصواب في وجهة نظري أن كليهما استقى الفكر ذاته من نلينو دون الإشارة الواضحة له وقد استعرضت أمر هذا الكتاب بقدر من الإسهاب في كتابي (على هامش التاريخ والأدب).

والحقيقة أني لا أتفهم هذا المنطق في عدم الرغبة في نسبة الفضل لأصحابه وأتأكد من صدق حدسي حول هذه الظاهرة وأنا أطالع مقالات الدكتور

(زكي مبارك) الهجومية على زميله بالجامعة المصرية الأستاذ أحمد أمين والتي حملت عنوان "جناية أحمد أمين على الأدب العربي" وقد نشرت على مجلة الرسالة حيث أشار إلى اقتباس أحمد أمين لمسألة خلو الجاهلية العربية من الأساطير بالمقارنة باليونان من محاضرة لزميله الدكتور أحمد نصيف وأن الفارق بينهما في الاقتباس أن الأخير قد أشار لمصدره وهو بعض المستشرقين مثل رينان..

للإنصاف روح الأنا وافتقاد الروح الجماعية في البحث والعمل المشترك ثمة مميزة لبعض الأساتذة المصريين قديماً وحديثاً ولا أبالغ حينما أقول أنه مرض مصري بامتياز وأستعير في ذلك حادثة طريفة ساقها (آرثر سيسيل ألبورت) أستاذ الطب الإكلينيكي بمدرسة طب قصر العيني بجامعة فؤاد الأول عام **1937** في كتابه "ساعة واحدة من العدل: الكتاب الأسود عن المستشفيات المصرية" أنه عرف أستاذاً بجامعة فؤاد الأول نشر **175** مقالاً بحثياً على مدى تسع سنوات دون أن يشير أبداً لمساهمات مساعديه.

لا نريد بمقالنا هذا أن نحيط الأجانب بهالة من القداسة والمثالية على حساب نظرائهم المصريين أبداً، بل أن نعيدهم لمكانهم الصحيح من التاريخ سلباً وإيجاباً فلا يمكن أن يجتمع الجميع منهم على النبل وسمو الرسالة فربما كان لبعضهم مآرب أخرى وهذا من طبائع البشر في كل الأزمنة لكن يبقى الحل في أزمة التعليم في بلادنا أن نستفيد من التجارب



الأوروبية المبكرة في بلادنا وأن نعيد دراستها من جديد وأن نستفيد من التجارب الأجنبية المعاصرة حولنا في تحديث التعليم وعلى صعيد الشخصية المصرية فلابد وأن نكتسب مهارات العمل الجماعي ومهارات التحليل لذا أتساءل لمَ لا تضم وزارة التربية والتعليم مادة لمناهجها هي التنمية البشرية لتصبح لصيقة لمادة الأخلاق المزمع تدريسها في المراحل الدراسية؟!. كذلك أضم لذلك تساؤلاً آخر لمَ لا يكون لدينا صحافة تعليمية مستنيرة تضم بين جنباتها كل ما هو جديد في نظم التعليم العصري وغرس القيم في العالم فتنير العقول لكل ما هو جديد وتحتاجه مجتمعاتنا؟!

****

الحلقة الرابعة

إنما الأمم الأخلاق

خرجت علينا في الفترة الماضية أحكام صادمة على فتيات في مقتبل العمر حملوا مسمى "فتيات التيك توك " خلفت موجة من الجدل الدائر حول دور وسائل التواصل في نشر الرذيلة والإفساد بين الشباب والشابات فباتت الفيديوهات الخادشة للحياء رهن الطلب بمبالغ مالية يسيل لها لعاب ضعاف النفوس علاوة على جني الأرباح من تحقيقها مشاهدات عالية.. قبلها بسنوات كانت الدعوة من جانب إحدى الإعلاميات لعودة البغاء المرخص كما كان بالماضي كوسيلة للسيطرة على الانفلات الجنسي بالمجتمع المصري!!

بالطبع سيكون طريقنا هو الدلوف عبر بوابات الماضي نقتفي أثر أمير الشعراء أحمد شوقي حينما قال: "وَإِنَّمَا الأُمَمُ الأَخْلاقُ مَا بَقِيَتْ فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلاقُهُمْ ذَهَبُوا" فهل كان الماضي بسحره تغطيه عباءة الأخلاق أم كان يبحث مثلنا عن الأخلاق في أزمنة أسبق عليه هو الآخر؟! وكأننا ندور في حلقة مفرغة.



الحقيقة أن آفة الركون للماضي في تاريخنا أنه في بعض المشكلات كان أعجز من واقعنا الحالي عن إيجاد حلول فتركت بعض القضايا المجتمعية تتفاقم وتتسع حتى خرجت عن سيطرة المجتمع ولتكن قضية البغاء مثالاً. بداية من الصعب تحديد بداية البغاء في مصر لأنه رافقها على مر العصور والأزمنة ولكنه اكتسى طابعه الرسمي في عهد العثمانيين وكانت بيوت الدعارة تسمى الكراخانات أي مكان النوم باللغة التركية.

كان البغاء في مصر مصرحاً به في السنوات الأولى لحكم محمد علي باشا بل ومصدراً من مصادر الضرائب إلى عام **1837** والذي شهد منع وتجريم البغاء في مصر وفي ظني أن الأسباب التي دفعت صناع القرار في مصر لاتخاذ هذه الخطوة لم تكن لدواع أخلاقية وإلا لكان المنع منذ البداية ولكن السبب يقبع في استفحال الأمر والخشية من خروجه عن السيطرة مع دعوات إلغاء الرق وتحول الكثير من الفتيات والفتيان المحررين من أغلال الرق لممارسة البغاء لجني المال، وهو ما كان يهدد بتفشي الأمراض بكثرة داخل مصر واستمر الوضع على ذلك المنوال حتى مجيء الاحتلال البريطاني لمصر عام **1882**...

إذا كان لديك عزيزي القارئ الوقت لتطالع السفر الضخم (مصر الحديثة) للورد كرومر المعتمد البريطاني في مصر وقد قدمت دراسة حوله في كتابي (على هامش التاريخ والأدب) ستجد حديثاً مستفيضاً عن الأخلاق البريطانية والمثل والقيم التي تريد غرسها الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس في مستعمراتها لكن الحقيقة أن المشروع الاستعماري كان يشوبه فصاماً نكداً ففي الوقت الذي يحمي أبناء جلدته من مغبة انهيار الحاجز الأخلاقي بمنع البغاء داخل بريطانيا فهو يعمل على توطينها في الوقت ذاته لدى مستعمراته ومنها مصر فعاد البغاء مجدداً في ظل قوانين منظمة.

في تقرير طريف كتبه الدكتور (فخري ميخائيل فرج) طبيب الجلد والأمراض التناسلية بالعاصمة صدر في **4**يناير **1924** عن "انتشار البغاء والأمراض التناسلية بالقطر المصري وبعض الطرق الممكن اتباعها لمحاربتها" وكان يقصد بتقريره هذا الوصول إلى أكبر رأس بالبلاد وهو الملك فؤاد والمفترض أنه راعي الأخلاق في مصر في ضوء ما اشتهر عنه من التشدد بالحجاب وأطرف ما يساق في هذا الصدد من اشتراطه على ملك أفغانستان (أمان الله خان) أثناء زيارته لمصر بعدم ظهور زوجته الملكة ثريا سافرة أثناء الاستقبال الرسمي في قصر عابدين وأمر الصحافة بعدم التقاط صوراً لها أثناء الزيارة وهي من القصص التي تصلح للاستهلاك المحلي وإقناع البسطاء بغيرة الملك على التقاليد لو صحت القصة خاصة أن مصدرها



وصيفة من وصيفات القصر ولو قبلنا القصة فماذا عن استقبال الملك فؤاد لزوجات السفراء الأجانب في المناسبات الرسمية هل كان يفرض عليهن الحجاب وبلده محتل؟!!.

نعود لموضوعنا وتقرير الدكتور فخري الذي قسم العاهرات إلى عاهرات أجنبيات من الدرجة الأولى وصفهن بالأفعى صاحبة الصولجان فهن في حمى قناصل بلادهن مما يجعلهن بمفازة عن الكشف الصحي الرسمي والاستعاضة عن ذلك بشهادة من طبيب خاص ترسلها كل فترة وقد لا ترسلها وتكتفي الداخلية والصحة بشكوى لقنصلها عن تقصير العاهرة في إرسال الشهادة في موعدها!!

يعتبر الدكتور فخري هذا النوع من العاهرات الأخطر في مصر لأنه خارج الإطار التنظيمي والرقابة ولا توجد بيانات كافية ودقيقة عن تعدادهن والذي تؤكد الشواهد وقتها أنه كان في اضطراد مستمر خاصة مع إغلاق الشرطة العسكرية لكثير من أوكارهن الرسمية فتحولن إلى الممارسة الغير نظامية.

أما العاهرات الوطنيات (يقصد المصريات) فيبشرنا الدكتور فخري بأنهن على العهد بهن بعيدات بحكم العفاف الشرقي والتقاليد الاجتماعية والدين وكأن الدكتور فخري لا يريد الاصطدام أكثر مع المجتمع وهو يفضح دهاليزه فوضع هذه الأسباب في المقدمة لكنه ترك للقارئ اللبيب أن يستشف من بين ثنايا السطور أسباباً أخرى لعدم ارتفاع نسبة الوطنيات

في الدعارة من بينها عدم الإلمام باللغة الإنجليزية مما يجعل من الصعوبة بمكان عقد هذه الصفقات المحرمة مع جنود الاحتلال علاوة على انصراف الشبيبة (الشباب المصريين) عن المصريات لافتقارهن للجمال مقارنة بالأجنبيات الساحرات.

يستعرض الدكتور فخري أماكن البغاء التي تتركز في المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية والزقازيق والمنصورة ما بين بنسيونات مراقبة وأخرى غير مراقبة وما أسماه بالمودة (يقصد الموضة) الجديدة في وجود ما يسمى بمحل خاص للتسلي وهو شقة خاصة تستقبل فيها السيدة زبائنها ومحل نصف خاص للتسلي وبه عدد من السيدات مشتركات في مصاريف الشقة وتتمتع كل واحدة منهن بخصوصيتها مع عشاقها وإيرادها الشخصي.

أما عن أماكن فحص سيدات البغاء فبحسب الدكتور فخري ثلاثة أماكن: مكتب درب النوبي -مكتب العباسية -مكتب السيدة زينب ويرصد لنا من داخل هذه الأماكن صورة طبق الأصل للكشف الطبي الذي يجري اليوم على مرضى العيادات الخارجية بشكل عام. فالكشف للمئات من العاهرات لا يستغرق الأربعين دقيقة في أحسن الأحوال فالأطباء في عجلة من أمرهم ولا يتم الكشف على جسم المرأة من الخارج ولا فتحة الشرج ولا أخذ عينات دم ولا فحص أي سائل أو إفرازات ميكروسكوبيا على الرغم من وجود الميكروسكوب وحيداً يعاني قلة



العمل!!!! ناهيك عزيزي القارئ عن عدم وجود خصوصية (**Privacy**) في الكشف وهو أمر من السهل أن تكتشفه في أول زيارة لعيادة حكومية في أي قرية أو مدينة اليوم وطبعاً فيما يخص العاهرات في الماضي كان الأمر أقسى فالجميع في غرفة واحدة على اختلاف الأعمار بدون كلسون!! وسط معاملة سيئة. هذا الكشف الطبي فما بال العلاج للمريضات منهن.

يتضمن التقرير حادثة طريفة هي أبلغ رد على مروجي الدعوة لعودة الفواحش ما ظهر منها وما بطن تحت إطار المكاشفة والحاجة المجتمعية أن أحد وكلاء النيابة أراد اختبار نفسه قبل الزواج فواقع واحدة من العاهرات المرخصات والمفترض أنهن خاضعات للكشف الطبي، فإذا به يسقط في براثن مرضي السيلان والزهري!!.

بحسب التقرير فإن الزهري كان الأكثر انتشاراً بين المصريات أما السيلان فكان على التساوي لدى الأجنبيات والمصريات لذا كان لزاماً ضرورة السرعة في تخصيص مستشفيين للعاهرات الوطنيات إحداهما بالقاهرة بالحوض المرصود والأخرى بالإسكندرية أما الأجنبيات فتم تخصيص مستشفى لهن في شبرا وقت تواجد الجنود الإنجليز في مصر إبان الحرب العالمية الأولى، ثم تم إغلاقها لعدم الحاجة عام **1922** مع رحيل القوات المحاربة وكأن حماية صحة الإنجليز أولى وأهم من صحة المصريين!! بحسب التقرير.

كانت حالة المريضات المصريات في هذه المستشفيات غاية في البؤس فكانت تكلفة معيشة المريضة التي تدفعها مصلحة الصحة من مأكل ومشرب وعلاج لا تتعدى خمسة قروش صاغ يومياً في وقت تصرف فيه المرأة الإنجليزية على كلبها ثمانية قروش صاغ يومياً وللقارئ أن يتخيل واقع الحال!!

هذا المبحث تحديداً أسوقه لنرى أن الرعاية الصحية لم تتغير بين الأمس واليوم؛ فهي على نفس الدرجة من السوء إن لم يكن أكثر بالماضي لكن الفارق أن عالم الأمس لم يكن به وسائل السوشيال ميديا فكان كشف الحقيقة مسألة صعبة وتزييف وتجميل الصورة من أهون ما يكون لكن لا نعدم وجود ضمير حي مثل الدكتور فخري يعري الحقائق بهدف الحل وهو لا يعبأ بمن سوف يتهمونه بإهدار الكرامة الوطنية والإساءة لسمعة مصر بنشر عيوبها. فأن تبادر أنت لاكتشاف مواطن ضعفك ونقائصك وحلها أفضل من أن يذكرها لك الأجنبي في شكل انتقاد وهذا هو مسلك جميع الأمم الحية الراقية.

في مذكرات حكمدار القاهرة البريطاني (توماس رسل) في الفترة ما بين **1917** إلى **1946** يرصد لنا عن كثب واقع ما أسماه المجتمع السفلي وتنبع أهمية مذكراته من كونه من وضع حداً لواحد من أشهر أباطرة الاتجار في الرقيق الأبيض في منطقتي الوسعة ووش البركة وهو رجل نوبي مخنث بدين



ضخم الجثة يرتدي ملابس نسائية وحجاباً أبيض ومجوهرات ذهبية في ذراعيه وعلى رأسه التاج يدعى (إبراهيم الغربي) وكان له على البغايا الطاعة العمياء التي وصلت إلى حد توقيع عقوبات على المخالفين منهن تصل للموت وكانت نهاية الغربي الموت بسجنه فعم الحزن أوساط البغاء في مصر كلها!!

انتهت الدعارة بشكل رسمي في مصر بموجب القانون **68** لسنة **1951** والمعمول به حتى الآن وقد سبق هذه الخطوة خطوات تدريجية منها تجريم القوادين عام **1937** وهدم بيوت الدعارة عام **1949** بموجب قانون عسكري. الملاحظ أن هذه التواريخ تتزامن مع توقيع معاهدة عام **1936** والتي نصت على جلاء القوات البريطانية عن مصر وقد تم جلاء القوات البريطانية عن القاهرة والإسكندرية بحلول عام **1946** ورفع العلم المصري عليها وهكذا بدأ البغاء شرعياً مع الاحتلال وانتهى رسمياً برحيله هذا هو الأصوب في ظني وليس القصة الشهيرة التي رواها الشيخ الفاضل (محمد متولي الشعراوي) أو نقلت عنه من أن إلغاء البغاء في مصر كان بحيلة من نائب منطقة باب الشعرية (سيد جلال الجيلاني) الذي احتال على وزير الشؤون الاجتماعية (جلال باشا فهيم) وجعله يمر بشارع كلوت بك (من مفارقات القدر أن يحمل هذا الشارع اسم كلوت بك الطبيب الفرنسي الذي عادى البغاء في مصر فإذا بشارعه يعج بالبغايا) فتعرض

الوزير للسرقة وتمزيق ملابسه من العاهرات هناك فألغى البغاء في مصر فهل الوزير لم يرَ البغايا إلا في هذا اليوم وما هي صلاحياته لاتخاذ مثل هذا القرار المصيري؟! ومع توقيري واعتزازي وحبي لشيخنا الجليل راوي القصة فمثل هذه القصص صحت أم لم تصح لا يمكن التعويل عليها في تفسير التاريخ.

****



الحلقة الخامسة

على مقهى الأخلاق

مع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي صارت الآفة التي تقتحم حياتنا هي (التريند) أو صناعة الرائج والبحث عنه واختلاقه واللهث خلفه.. بطبائع الأشياء قد يكون التريند عملاً حسناً ملهماً يشار له بالبنان وقد يكون شراً مستطيراً أو فعلاً قطميراً والمجتمعات بين هذا وذاك لكن مجتمعنا المصري على وجه الخصوص كان للنوع الثاني أدنى فهو الذي يحتل الصدارة في العادة ويحتل المساحة الأكبر من اهتمام الناس وتفاعلهم كالأغاني السوقية والأفلام المناهضة للأخلاق التي تحمل معان ومصطلحات عشوائية ومبتذلة وتعبر عن قيم البلطجة وفرض السيطرة والطريف أن لها رصيداً غير يسير أيضاً في الماضي ذلك الإرث التليد الذي نظنه دائماً أفضل من واقعنا ونتمنى لو نفر إليه وبخاصة تاريخنا المصري.

منذ سنوات كنت ووالدي نتطلع لشراء منزلٍ وبعد بحث أرشدنا سمسار لأحد المنازل فوجدت صاحبه قد فوض أحد الساكنين بالمنزل أو قل الساكن الوحيد بالمنزل لإدارة كل الأمور ولن نختلف على السعر وبعد جلسة واحدة عرفت أن الساكن بلطجي لكن بلطجي بشرف وصاحب رسالة ينتزع الحقوق لأصحابها عنوة من أعدائهم بمقابل بسيط نظير

عرقه وجهده وأن صاحب المنزل تهرب من ملاحقات قضائية وعائلية من مطلقاته العديدات قد عين البلطجي وأسكنه معه ليكون برفقته ويزود عنه بمطواته التي ترافقه كالصديق الحميم..

حقيقي صفقة رابحة منزل ومعه بلطجي.

والبلطجي هو المسمى الصادم لمعان أخرى في إرثنا التاريخي كابن الحتة والفتوة والجدع كلها تصب في مستنقع آسن محوره شخص يحصل على حقه أو ما يعتبره حقه وحقوق الآخرين خارج منظومة القانون مستخدماً القوة البدنية أو بالسلاح أو بالاثنين معاً، ومن هذا المنطلق فهو يمارس سلطة أبوية في منطقته ويقوم مقام القانون والقضاء في آن واحد للفصل بين الناس مطبقاً شريعته خيراً أكانت أو شراً، والجميع أمامها مثول.. الغريب هو نظرة المثقفين ومن خلفهم السينما والتلفاز لهذا الشخص فبدلاً من التنبيه على رداءة مسلكه إلا أن الرسالة الإعلامية رفعت ولا زالت ترفع من شأن هذه الظاهرة مادامت تعين على الحق والخير وعلى الرغم من انتهائها رسمياً إلا أن البلطجي فكرة لا تموت ففي كل حي شعبي بلطجية يمارسون شريعتهم وأنت وقدرك.

في الأول من يوليو عام **1931** نشر (حسني يوسف) صاحب جريدة (لسان الشعب) بالجمالية بمصر مجموعة (مذكرات فتوة) في ثلاثة أجزاء أملاها عليه المعلم يوسف أبو حجاج الفتوة ذائع الصيت؟!!



السؤال الذي يتبادر إلى الذهن ماذا يجني المجتمع من وراء مذكرات لفتوة؟! الإجابة بالطبع جاهزة في مثل هذا النوع من الكتابات التي تشبه ما نحن عليه الآن لكن تختلف في الوسائل ألا وهي سبر أغوار المجتمعات العشوائية ومعرفة اهتماماتها وما تفكر فيه تماماً كما لو سألت منتجاً تليفزيونياً لماذا تنتج فيلماً أو مسلسلاً جله عنف وإسفاف؟! ستكون الإجابة نحاول أن نقرب الواقع من المشاهد فتنفق المليارات لبث الواقع المزري ونشره ولا ينفق القدر الضئيل منها في تغييره.

حينما وقعت بين يدي مذكرات فتوة في طبعتها الأصلية حاولت أن أفهم لماذا طرح هذا النموذج في هذا الوقت المبكر؟

فبحثت عن أرشيف جريدة لسان الشعب فلم أعثر عليه وبحثت عن تفاصيل أكثر حول الأديب حسني يوسف الذي صاغ هذه المذكرات بأسلوب عامي فج يدعو للملل والنفور خاصة فيما يخص المعارك بين المعلم وفتوات المناطق الأخرى دون أن يبذل أي مجهود في تهذيبها وهو نفسه صاحب الجريدة مع أني وجدت كتاباته الأخرى هادفة مثل: **21** صناعة تغنيك والفوائد الصناعية والأسرار الكيميائية وهي كتب تبحر في مفهوم الاكتفاء الذاتي والصناعات المنزلية وهي تلائم طبيعة الأزمة العالمية والكساد الاقتصادي الذي تبعها في الثلاثينيات من القرن المنصرم وهكذا

لم أجد ضالتي في الإجابة في ضوء ما تجمع لدي حول الكاتب في هذا الوقت القصير وهنا ربما يكون إعمال الحدس محمود الأثر في هذه المسائل.

حينما قرأت تقديم الكاتب الشهير وقتئذ (حسين شفيق المصري) شعرت أني وضعت يدي أخيراً على الإجابة إنه (التريند) قديماً أيها السادة.

فحسين شفيق المصري شاعر أشتهر بخط السخرية والفكاهة والتربص بالفصحى فهو رائد (الشعر الحلمنتيشي) وهو الاسم الذي اختاره لشعره الساخر وفيه أصبحت المعلقات "مشعلقات " فتحول القول البليغ لزهير بن أبي سلمى "أمن أم أوفى دمنة لم تكلمِ.. بحومانة الدراج فالمتثلمِ"، بقدرة قادر إلى "أمن أم فتحي سنة لم تطرمِ بطرطوفة الكرباج تطلع بالدمِ وجرح لها بالشفتين كأنه طماطمة في وجها المتخرشمِ" في متشعلقة شفيق!!

وفي عز ما كانت ثورة **1919** تجتاح مصر والجميع ملتف حول زعيمها سعد زغلول باشا كان للشاعر رأي آخر وهو تحويل زعيم الأمة لمادة من الفكاهة والنكت الساخرة! وفي مذكرات فتوة يذهب بنا إلى نفس المنحى حينما يعيب على من أسماهم "المتحذلقون من النحاة المتشبثون بأذيال اللغة الفصحى ولا يعرفون أين يذهبون بها؟! "فيما يرى "إصلاح البلاد بالتأديب الممتزج بالفكاهة والنكتة الذي يذهب عن النفوس الملل"



ولننطلق في أثر شاعرنا لنرى الأدب الخلاق الذي بشرنا به وتحمله (مذكرات فتوة)!!

وليسمح لي القارئ أننا في حلقة اليوم سنجلس على مقهى التاريخ لأننا ولأول مرة سنخرج عن نهج الحلقات ونستخدم رغماً عنا مصطلحات عامية مكانها المقاهي الشعبية لأن صانعي التاريخ في هذه الحلقة لهم مفرداتهم الخاصة وقاموس حياتهم المتفرد.

يبدأ الجزء الأول بالحديث عن نشأة المعلم (يوسف أبو حجاج) لأب جزار يخرج ابنه من كتاب الست السطوحية الذي التحق به بناء على رغبة خاله وعلى هذا أصبح مجمل التحصيل العلمي للمعلم كما يقول "اتعلم يا دوب يقرأ سطر في الجرنان في ساعة أو في اثنين". مع موت الأب يلتف حول الفتى أصدقاء السوء فباع محل أبيه وأراد إضاعة ما بقي من التركة لكن أمه كانت له بالمرصاد ومنحته في المقابل مصروفاً "حتة بعشرة" لكن الفتى وقد أصبح من "قناصل الفتوات" كره أن يظل بلا صنعة فعاود العمل في "كار أبوه" ولكن ليس كصاحب دكان إنما تحت إدارة معلم آخر هو (الرخاوي) الذي فتح له جزارة خاصة من فرط إعجابه به لكن مع عتاب الرخاوي له لعودته للفتونه قرر الاستقلال بمحل خاص به مع أخيه.

في محيط هذه المذكرات نتعرف على أبطال آخرين أمثال "عرابي" الفتوة وصديقه "بلحة" الذي يرافقنا كثيراً في المذكرات و"زكي الصور" انتهاء برمضان أحد أقارب والدة المعلم والذي أراد أن يتزوج لكن والد العروس رفض الزيجة فمن العيب في هذه الأزمنة زواج الابنة الصغرى قبل الكبرى ورمضان يريد الصغرى!! وهنا يأتي الحل من المعلم يوسف الذي يتزوج الكبرى فيما يتزوج رمضان الصغرى ويتزوج بلحة من أخت المعلم يوسف وتكون التوبة و"المشي الطيب ما فيش أحسن منه "و"الشقاوة مافيش منها فايدة ولا عايدة "هي عنوان النهاية للجزء الأول من المذكرات.

في الجزء الثالث يتضح أن رواجاً صادف هذه المذكرات مع إشارة المعلم في بداياته بأن القراء "منبع اللطافة والإنسانية سوباميت ألف فلة ومليون ديشليون نرجسة على العيون الكويسة" يريدون من حسني أفندي يوسف باقي حكايات المعلم فيبشر قراءه بأنه وتأثراً بصديقه بلحة التحق بمدرسة ليلية وزالت مخاوفه من الجلوس وسط الطلاب حينما وجدهم خليطاً من كبار وصغار السن على اختلاف هيئاتهم "سكلانس من كل صنف "وأنه احتفاء بزملائه الجدد وهو رجل كريم بالطبع أخرج علبة السجائر "يفرق عليهم داخل الفصل "لكن الشيخ (عباس) المدرس "ضحك وقال ممنوع شرب الدخان في الفصل " طبعاً لم يجرؤ المدرس على الإفصاح أن التدخين ممنوع في المطلق فتلميذه "فتوة وعم جدعان"



ويتنقل الجزء الثالث تماماً كسابقيه بين العركات الضارية للمعلم يوسف والمرات العديدة لدخوله السجن والتي يصفها بدقة متناهية مفاخراً بنفسه أنه "شقي لكن شقاوة بالشرف" وأن "الفتوة المجدع إذا لم ينل الصيت والاسم من دخول السجن، لا يكتمل سجله ولا تاريخه في الفتونة" كما يطوف بنا في عالم السحرة والجن بحثاً عن حصانه زبلن الذي تمت سرقته مع دواب أخرى ويحدثنا أيضاً عن الحالة الاقتصادية الصعبة في هذه الآونة والتي أثرت على تجارته بشكل كبير.

هذا هو محصلة ما يجنيه القارئ من واقع شعبي يعيشه المعلم يؤثر فيه ويتأثر به سلباً وإيجاباً. لكن ما أراه قد أقحم في هذه المذكرات عن عمد بموافقة المعلم أو بدون وذلك لعدم إدراكه بمجريات الأمور السياسية والاجتماعية في هذه الفترة وبحثه عن الشهرة وحسب ما يتعلق بأمرين:

الأمر الأول: هو الحط من شعارات التضحية والفداء في ثورة عام **1919** لتوجيه الرأي العام وحمله على الدعة والاستهانة بقضاياه المحورية، فنجد المعلم يتحدث عن ثورة **1919** على النحو التالي: "وفضل مبسوط لحد ما هلت سنة **19** وكانت سنه يعلم بها ربنا فقر وغلب أزلي وتفليس" ويحكي مشاهد اندلاع الثورة بقوله: "وفي شهر مارس بص التقى الناس هايجة وهايصة سأل عن السبب قالوا علشان الإنجليز مسكوا جماعه بشوات وحبسوهم ومعاهم واحد كبير قوى اسمه سعد زغلول " وعلى عادة البسطاء

في الانخراط في أي مظاهرة حتى دون معرفة سببها أو متزعمها دخل في مظاهرة "طالعة العباسية " لكنه آثر السلامة "علشان أياميها كانت سلطة إنجليزية لا فيها محامي ولا كفالة وحرام يتسجن أوانطه علشان يحيا ويعيش"، ثم يخلص إلى قرار هو بيت القصيد ووجهة نظر الداعمين لهذه المذكرات البائسة في غالب الظن فضلاً عن كونها تخدم بشكل أو بآخر التوجه السياسي لحكومة إسماعيل باشا صدقي والتي فرغت ثورة **1919** من مكتسباتها وعلى رأسها الدستور وذلك بقوله: "قام حلف ستين ألف يمين إنه ما عادش يعمل مظاهرات ولا ينحشر فيها علشان المظاهرات دي ما فيش منها فايدة أبداً غير ضياع أرواح في الفارغ البطال ولا سعد حاينفعهم ولا غيره" كما وصف من اختاروا التضحية والفداء ب "مقايسين على حياتهم".

ولو وضعنا ما قاله المعلم أو أراده مسؤولو الجريدة جنباً إلى جنب مع ما سطره الطالب محمد عبد الحكم الجراحي (كانت أمنيته دخول كلية الهندسة لكن دخل كلية التجارة لمدة عام، ثم سافر لفرنسا لدراسة الطب بليون لكن عاد دون شهادة لمصر ليلتحق بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول!!!) لرئيس وزراء بريطانيا، وهو يصارع الموت بعد سنوات قليلة من هذه المذكرات في مظاهرات كوبري عباس الأولى إذ يقول: "إلى رئيس وزراء إنجلترا روح الشر، سيدي - أحد رجالكم الأغبياء أصابني برصاصة، وأنا



أموت الآن شيئاً فشيئاً، ولكني سعيد للغاية بأن ضحيت بنفسي. إن الموت أمر صغير وآلام الموت عذبة المذاق من أجل مصيرنا، فلتحيا مصر، ليسقط الاستعمار ولتسقط إنجلترا، وسيتولى الله عقابكم قريباً، أنتم وإنجلترا روح الشر-فلتحيا التضحية" لوجدنا الهوة شاسعة بين السطحية والعشوائية متجسدة في المعلم وبين الثقافة والوعي متجسدة في الطالب الشهيد لكن الواضح أن الكفة بين الاتجاهين أخذت تميل لصالح الأول تدريجياً مع الزمن حتى وصلنا إلى ما نحن عليه الآن.

الأمر الثاني: وهو واضح الدلالة في مسألة الإقحام في هذه المذكرات ولكن لهدف ركوب (الترنيد) بشكل جلي فنجد المعلم يوسف يدلي بدلوه في مسألة التطور والنشوء والارتقاء فيجمعه القدر في طنطا بمجموعة من الأفندية أصدقاء (علي بيه) تلميذ الطب الذي ترك الدراسة بعد وفاة أبيه الجزار ليدير صنعته وتطرق ولا تفهم عزيزي القارئ ما الذي حمل الحوار على التطرق أن الإنسان أصله قرد بحسب العلماء وتساؤل بلحة "على كده أبونا آدم كان قرد؟! "فيجيب أحد الأفندية بالإيجاب فيفحم المعلم يوسف الحضور بجثة توت عنخ آمون التي كانت حديثة الاكتشاف وقتها لم يجدوه قرد أو حتى شبيهه ويزيد على ذلك قوله تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ". إذا علينا أن نصدق أن المعلم الذي كان في بداية المذكرات يقرأ سطر في ساعة أو ساعتين إن أفلح في ذلك قد عرف توت عنخ آمون

وحفظ اسمه ولم يصفه مثلاً بالمسخوط استلهاماً من لغته العامية الشعبية بالمذكرات كما استدعى من ذاكرته آية من القرآن وقد حلل مغزاها أيضاً..

إننا لا نقلل من ضرورة نقل الواقع بشكل صادق ولكن علينا أن نهذبه حتى لا نفسد الذوق العام بأكمله فلا نحن قد أصلحنا من أمر من اختارتهم الحياة ليكونوا على هامشها، ولا تركنا صفوة المجتمع على رقيها ورفعتها فإذا بنا نجعل عاليها سافلها، "سكلانس "على رأي فتوتنا البليغ المفوه!!

****



الحلقة السادسة

على مقهى الأخلاق 2

في إحدى المرات وقع خلاف بيني وبين أحد الشخصيات النقابية بمهنتنا المسكينة وكان السبب أن الرجل دأب على تضخيم ما يراه إنجازاً وهو في حقيقته بضعة صور ينشرها على صفحته على الفيس بوك لأحداث نمطية تخلو من أية ابتكارية وتحمل في طياتها الإخفاق وشروخ الانهيار المهني... خلاف في وجهات النظر أمر مشروع أليس كذلك؟! لكن الرجل في نفس اللحظة وضع رده على مخالفيه والطارحين لأفكار إبداعية وأنا منهم في هيئة حمار مسكين ينظر لنفسه في المرآة كأنه جواد ضخم واتبع هذه الصورة بأبيات شعرية مستشهداً: "إذا ظهرَ الحمارُ بزيِّ خيلٍ تكشَّفَ أمرُهُ عندَ النّهيقِ"!!

فوجدت نفسي أسطر مقالاً صغيراً تحت عنوان: قراءة في فلسفة الفكر الزرائبي متلمساً منطق الزميل الفاضل في عدم التمييز بين البشر والحيوانات والنظرة للحياة من زاوية الزريبة الكبيرة فالموافق للزميل في رأيه وذاته التي تعلو على أي انتقاد ولو بهمسة فهو حصان كبير ممتلئ الجوانب وجامح أما المعارض لرأيه فهو حمار مسكين ينظر إلى المرآة بحسرة حاسباً نفسه كهذا الحصان لكن يبقى النهيق مميزاً بين الحمار المسكين

والحصان المتعجرف الواهم. وعبثاً حاولت بأسلوب علمي أن أفهم الزميل أن الحصان والحمار من نفس الفصيلة ولا يميزهما النهيق بل ما يميز الحمار تفرده وحذره بالمقارنة بالحصان الذي لا يستطيع أن يفارق القطيع وأقل حذراً بينما الحمار يتمتع بذكاء في قدرته على الوصول للمكان الذي اعتاد عليه ولديه حرص وحدس أكثر للمخاطر خالصاً من ذلك أن تواضع الحصان أمام هذه الحقيقة وتصالحه مع الحمار أمراً نافعاً فلو اجتمعت خصالهما معاً وتكاملت لنهضت الزريبة!!

فالعمل الجماعي المشترك القائم على الإنصات وتبادل الآراء والتخلي عن الزهو الزائف يصنع مرآة جديدة بصورة جامعة للطرفين وبأبيات شعر تتزين بالحمار والحصان معاً ولكن هيهات للنفوس أن تستقيم.

حينما قصصت هذه القصة على أحد شيوخ المهنة قال متململاً وكأنه لم يفهم ما قلته أو أنه سأم هذا الجدال العقيم وقرر الخلود بين جنبات الماضي الجميل: "مالكم معشر الشباب وأدب إدارة الحوار؟ انظر لجيل الرواد في الماضي" وأخرج من مكتبته بالصيدلية كتب عبقريات العقاد وكتاب وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي وأنهى الحوار قائلاً: "مالي وعالمكم الفوضوي؟!" قلت لنفسي لمَ لا أفعل ما فعله شيخ مهنتنا وأنكب على كتب الماضي الجليل وأبحر معها؟ وكنت لازلت على إجلالي لحضرة صاحب المعالي الماضي العريق.



فوقع بين يدي كتاب (على السفود) لمصطفى صادق الرافعي صاحب الدرر الأدبية: "تاريخ آداب العرب" و"تحت راية القرآن" و"وحي القلم "و"المساكين" وواضع السلام الوطني المصري " أسلمي يا مصر" وكذلك النشيد الوطني التونسي "حماة الحمى".

فيما أبعدت بصري عن سلسلة العبقريات للعقاد التي تتوسط مكتبتي فلقد قرأت له في الماضي رواية سارة وبعد بضع صفحات منها لم أفهم منها سطراً واحداً، كانت كفيلة أن أضع حداً لمستقبلي في الكتابة الروائية فاعتزلتها من قبل أن أبدأها!!!

بالطبع لهذه الكتب الثقافية القديمة طقوس فالقهوة خلقت لمثل هذه القراءات فبدأت بصنع فنجاني من القهوة الثقيلة والخالية من السكر وبدأت أطالع (على السفود) وكلي حماس أني سأنهل من علم النقد عند الرافعي ما لم أنهله في علم الرواية لدى العقاد!!

وكانت المفاجأة قاموساً من الشتائم المنتقاة بعناية يكيلها الرافعي للعقاد فالعقاد بحسب الرافعي "الجلف الحقود المغرور " و "لص من أخبث لصوص الأدب يدعي ملكية ما يسرقه" وفي موضع آخر "لص يريد أن يكون من أرباب الأملاك" وأنه استفاد من عمله بجريدة البلاغ التي فصلته فهي لمنزلتها الكبيرة "تصبغ شيبه وتخفي عيبه وتجعله نايبه" ويعلل معايير الجريدة التي جعلتها تختار العقاد فهو "سفيه أحمق " و" لم يروا أكفأ من العقاد وقاحة وجه وبذاءة لسان وموت ضمير وحمقاً أكبر من الحمق

الإنساني ولؤم نفس بقدر مجموع كل ذلك " كما ينقل مقتطفات من أسلوب العقاد في كتاباته على الجريدة فهو يصف الدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير السياسة "كتب الواد المسطول" ويخاطب خليل بك ثابت رئيس تحرير المقطم بقوله " اقتصادية ماذا يا مغفل؟ "

ومن العقاد الصحفي إلى العقاد الأديب يتحدث الرافعي "أسلوبه الأدبي أحمق مثله فهو مضطرب مختل لا بلاغة فيه وليست له قيمة" ولا ينسى الرافعي أن يتطرق إلى شعر العقاد واصفاً إياه بالشاعر "المراحيضي".. نعم كما قرأت عزيزي القارئ وشعر العقاد ليس بأحسن حظاً من أدبه "فبعض أبياته حسنة لا بأس به "و " ألوف من الأبيات السخيفة المخزية لا قيمة لها" وكأن حظي أنا والعقاد في محافل الاختلاف واحد فمخالفينا في الرأي لابد وأن ينزلوا بنا إلى المعترك الحيواني دفعاً!! فيصف الرافعي غريمه العقاد بقوله "وفي الوجود مثل العقاد حشرات وحيوانات سلحتها الطبيعة في ميدان التنازع بأسلحة بعضها وقاحة في أمعائها كالظربان وهو دويبة فوق جرو الكلب منتنة الريح كثيرة ألف...." كم كان الرافعي كريماً مع جمهوره من القراء حينما أطلق الفاء وترك الحروف اللاحقة عليها لتخمينهم!!

الحقيقة إني أعتذر من القارئ على هذا المستوى المتدني من الخطاب والذي نقلته حرفياً، واخترت منه ما كان صالحاً للنشر وهو يخرج تماماً عن إطار النقد الأدبي العلمي إلى كونه خناقة على مقهى بلدي بحي شعبي ومن يود



استكمال باقي هذا القاموس من الشتائم أحيله للكتاب المتاح كاملاً على موقع مؤسسة هنداوي.

ولكن يبقى السؤال ما الذي ألهب الصراع بين الأديبين العملاقين؟!

السبب بسيط الصراع على القرب من سعد زغلول باشا!!.

ربما لا يعرف الكثيرون من صورة سعد زغلول سوى نبرته الليبرالية وبذلته الإفرنجية وطربوش الباشا الأرستقراطي، لكن كان خلف هذا وجه آخر لسعد طواه الزمن ألا وهو خلفيته الأزهرية وجبته وقفطانه القابعين في وجدانه وأن الزعيم في صدر شبابه قد ألف كتاباً في الفقه الشافعي وذلك بحسب ما قصه الشيخ محمد مصطفى المراغي على أحمد لطفي السيد.

لذلك لا تستغرب عزيزي القارئ من احتفاء سعد بكتاب مصطفى صادق الرافعي "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" وتقريظه له بأنه "بيان كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم" كما نال الكتاب رعاية الملك فؤاد الذي أمر بطباعته طبعة ملكية على نفقته الخاصة وذلك عام **1928**.

وتشاء الأقدار أن يلتقي الرافعي بالعقاد في مجلة المقتطف عام **1929** فيسأله عن رأيه في الكتاب فيثور العقاد ويسفه الكتاب ويتهم الرافعي بتزوير تقريظ سعد. حتماً ستساورك عزيزي القارئ الدهشة لماذا ثار العقاد وهل تعمد الرافعي إغاظته؟!

لقد شاءت الأقدار أن تكون ظروف الرجلين واحدة؛ فكلاهما لم يكمل تعليمه وتوقف بهما التعليم عند المرحلة الابتدائية، وكلاهما حاول تعويض هذا النقص بالانكباب على الكتابة الموسوعية أي الكتابة في كل شيء وأي شيء! لكن الشهرة لن تأتي وحدها من الكتابة الأدبية، فالميدان خصب وحافل ومليء بالرموز من كل حدب وصوب لذا فصناعة المتابعين والقراء أو ما نسميه في عالم اليوم **followers** لن تأتي إلا بالمعضدات السياسية والانخراط في الحياة الحزبية أوالالتفاف حول أحد المعسكرين إما حزب الوفد والذي خرج من رحم ثورة **1919** والولاء لزعيمه سعد وإما الالتفاف حول صاحب السلطة الشرعية في البلاد الملك فؤاد والطموح من يسعى بين هذا وذاك.

كان العقاد هو قلم زعيم الوفد ولسانه الأمين وأقرب أتباعه وكان يحارب في ضراوة كل من يقترب من هذه المكانة أو يشتم منه مجرد الرغبة في حجبها عنه فكان تقريظ سعد للرافعي مخيفاً للعقاد في أي ينال الرافعي الحظوة لدى سعد ويطيح بمكانته وكانت تطلعات وطموحات الرافعي ليست بخافية على الوسط الأدبي مع سعيه أن يكون شاعر القصر كبديل لعبد الله عفيفي المقرب من ناظر الخاصة الملكية زكي الإبراشي باشا، لكنه كان متعجلاً في مسعاه مما أفقده الروية والحنكة فراح يتهم عفيفي بالغفلة وقلة المعرفة والذوق الفاسد في ثلاث مقالات غلب عليها النكات اللاذعة والأمثال



الشعبية للحط من قدر الرجل متناسياً أنه لا يسيء بذلك لشاعر القصر بل يسيء لسيد القصر الملك فؤاد الوارد اسمه في هذه الأشعار مما جعل القصر يميل لكفة عفيفي..

اتخذ الرافعي في هجومه ضد خصومه عنواناً واحداً هو (على السفود) وكانت مقالاته دون اسمه وتوقيعه والسفود هو الحديدة أو السيخ الذي يشوى عليه اللحم وكانت المقالات تنشر بمجلة العصور لصاحبها إسماعيل مظهر والذي وجد ضالته في اجتذاب جمهور لجريدته بأسياخ السفود الرافعية المسلطة على خصومه.

كم كان الرافعي موفقاً حينما قال في رثاء أمير الشعراء أحمد شوقي في صحيفة المقتطف عام **1932**، "الطبيعة المصرية لا تساعد على إنضاج المواهب الشعرية ولا تعين على إبراز الشاعرية الكامنة في كل نفس " وهو أمر أضيف عليه من واقعنا أن البيئة المصرية المخضبة بالإيثار النفسي والذاتي والكراهية والتصارع والعزلة عن الواقع هي بكل تأكيد طاردة لكل المواهب وليست الشعرية فقط.

الطريف أن تقريظ سعد لكتاب الرافعي لم يكن عنواناً للمعركة بينه وبين العقاد فحسب بل ربما فأل حسن أيضاً حمل الرافعي إلى عالم الإعلانات ففي إعلان نشرته مجلة الدنيا المصورة عام **1929**، بخط يد الرافعي وتوقيعه باعتباره "نابغة الأدب وحجة العرب" تم استثمار مقولة سعد باشا زغلول

في وصف بيانه كأنه تنزيل من التنزيل وقد جاء الإعلان عن استخدام الرافعي لعقار الفوسفورين فوجد "أنه لا يوجد مثله في تقوية الأعصاب"!!
إن هذه المشاهد بين الماضي والحاضر تنقلنا بجلاء لحقيقة هامة أننا لا نملك الحد الأدنى من القدرة على الاختلاف بشرفٍ وتعالٍ عن الصغائر واحتكام للحكمة بعيداً عن الابتذال والسوقية ولابد من أن نعترف أن هذه أحد أمراضنا المنتشرة قديماً وحديثاً وحينما نقترب من واقعنا ندرك أن أصل الداء يكمن أننا معشر المصريين لا نعرف العمل الجماعي الناجح ولا نفهم ماهية الشحذ الذهني وتبادل الآراء والرؤى المختلفة واحترامها، ثم انتخاب القرار الأصوب والنزول على رأي الأغلبية والعمل معاً.. كل منا يعبد ذاته وينظر من زاويته وينطلق من فلسفته وأنها الصائبة بشكل مطلق والباقي أغبياء وحمقى!!

****



الحلقة السابعة

إنما الأمم الأخلاق2

في تقريره عن" انتشار البغاء والأمراض التناسلية بالقطر المصري وبعض الطرق الممكن اتباعها لمحاربتها" أوضح الدكتور (فخري ميخائيل فرج) طبيب الجلد والأمراض التناسلية بالعاصمة أن ثمة أسباب لاستفحال ظاهرة البغاء من بينها: "الرغبة في التجربة وعشق كل لذة جديدة وتعشق الاستمتاع بالرجال".

قد يبدو التعليل غريباً ولكن حينما بحثت بين جنبات الواقع وتحديداً في هذه المساحات الزمنية من الماضي وجدت التجسيد الحي لملامح هذه الطائفة من النساء ودوافعها بين دفتي مذكرات عميد المسرح العربي (يوسف وهبي) الرجل الجهوري ذو الملامح الصارمة والمدافع عن الفضيلة والقيم والأخلاق بأفلامه ومسرحياته!!

لكن ما حملته مذكراته (عشت ألف عام) كان صادماً لي بالدرجة الأولى علاوة على جمهوره ممن قرأ هذه المذكرات حيث يكشف لنا عن وجه آخر وهو علاقاته النسائية فيقول: "مغامرات مع الجنس اللطيف تفوق حد الخيال، راغبات في خلق علاقات مع ذوي الشهرة، وفضوليات متعطشات للتذوق والتجربة، فراشات تغريها الأضواء يتساقطن في أتون النار، لكنني

كثيراً كنت ضحية للمغريات. أنا لا أدعي أنني كنت قديسًا أو راهبًا في محراب، أو متصوِّفًا، أو معصومًا من الخطأ والشهوات، لكنني -كغيري أيام الشباب والفتوة -كنت أستجيب أحياناً للإغراء والجمال في شيء من النهم".

من الأسباب الأخرى التي ساقها الدكتور فخري "الزواج المبكر" وسأسوق من واقع هذه الفترة مثالاً لا يقل صدمة عن المثال السابق ولكن هذه المرة من مذكرات الضاحك الباكي الذي عشقناه جميعاً (نجيب الريحاني)، حيث يحكي عن فضيحة أخلاقية كانت السبب في فصله من شركة السكر التي كان يعمل بها خلاصتها أن باشكاتب الشركة كان رجلاً مسناً كان "رحمه الله على نياته" فاستغل الريحاني قرب منزله من منزل الرجل المسكين وواعد زوجته الجميلة والصغيرة السن "سن تسمح لها بأن تكون ابنة لا زوجة له" وكان زوجها المسن في مهمة عمل اضطرته للسفر ولكن يشاء القدر فضح الريحاني حيث تحكم الخادمة "اللعينة" قفل مخدع سيدتها من الداخل فيحاول النفاذ عبر منفذ في السقف فاستيقظت الخادمة وظنته لصاً "فصرخت بصوتها المنكر وصحا الجيران"، حقاً مؤسف للغاية أن نرى فنانينا المدافعين عن القيم في حياتهم الخاصة على غير ما نراه على الشاشة.

نعود لأسباب الدكتور فخري الأخرى ومنها وجود نساء يتنقلن بين المنازل تحت مسميات مثل بلانات (خادمات بالحمامات الشعبية يقمن بتدليك النساء) وماشطات (مزينة الشعر وتقوم بتزيين العرائس) وهي "واسطة



إفساد الأخلاق ونقل رسائل العشاق" ويضيف لأسبابه "تعدد الزوجات" و"توقع الطلاق" و"الزواج الانتفاعي" و"الزواج الإجباري"، كما يسوق سبباً طريفاً وهو رغبة الوطنيات (المصريات) في تقليد الأجنبيات في أزيائهن فتبيع عرضها بخساً للحصول على فستان مودة (موضة) أو حذاء جميل خاصة إن كانت زوجة لرجل من الطبقة الوسطى لا يمكنه شراء كل فستان أو حذاء تبعاً لتغير الموضة للمرة الثالثة أو الرابعة كل عام كما يسلط الضوء على السبب في ذلك. وهو الرخاء المالي الكبير في هذه الفترة الذي عمل على تزايد الفجوة بين أصحاب الأملاك والمهن الحرة والتجار بالمقارنة بالموظفين "الذين ما كانت لتزيد مرتباتهم".

من الأسباب التي ساقها أيضاً الدعاية التجارية للروايات التي تنصح السيدات والآنسات بعدم القراءة أو المشاهدة علاوة على "انتشار التمثيل الهزلي في العواصم وسماح الرجال لعائلاتهم بالزيارة للمسارح الساقطة" التي تسمى "ماتينيه السيدات" فيما يؤكد الدكتور فخري في الوقت ذاته على إيمانه بأن التمثيل من أهم وأقوى طرق التعليم والتربية لكنه يجد أن المرأة المصرية ليست كالأجنبية فهي لازالت على ما أسماه "الفطرة المقيدة المحبوسة"، فهي "لم تدرس أخلاقاً غير أخلاق زوجها ولم تجالس إلا أباها وأخاها وخالها وعمها"!!

وحتى نفهم هاتين السببين بشكل واضح فلزاماً أن لا نفصل التقرير عن الواقع الذي يرصده في تلك الآونة، فقد كانت المسرحيات تعرض بالصالات

الاستعراضية بين فواصل الرقصات وللأسف كانت مقصداً لكثير من العائلات لكونها أقل تكلفة مقارنة بالمسارح ومن هذه الصالات والتي شهدت رواجاً كبيراً في هذه الآونة صالة (بديعة مصابني) وصالة (ببا عز الدين) و(سعاد محاسن) و(ماري منصور) و(رتيبة وأنصاف رشدي) ونظراً لكون غالبية هذه الصالات مملوكة لراقصات فكان الرقص الخليع والمنولوجات تؤدى إلى جانب المسرحيات قصيرة المدة والجمهور بين عائلات وشباب وشيوخ سكارى وغير سكارى.

أما موضوع المسرحيات، فكان منها المترجم ومنها المؤلف وكان بعضها يتسلل للبيوت المصرية وهي تحمل على غلافها هذا التنبيه "استلفات نظر لا يجوز للنساء قراءة هذا الكتاب" وقد وقع تحت يدي كتاب من هذا النوع وأنا من هواة اقتناء ورصد الكتب القديمة والكتاب هو: (المضحكات مجموعة أدبية فكاهية غرامية تأليف واختيار محمود عزت المفتى صاحب المكتبة العصرية ومطبعتها) وكل ممنوع مرغوب بطبيعة الحال.

كان الدكتور فخري يرى أن "البغاء لا تنفع فيه قوة ولا قوانين ولا لوائح" فإنجلترا لا تسمح بالبغاء الرسمي وفرنسا تسمح به وألمانيا تجرمه لكن تجيزه في حدود معينة ومع ذلك فجميع هذه الدول سيان في درجة امتلائهم بالبغاء!! وأن المجتمع ليس منصفاً في تحميل المرأة وحدها مغبة هذا الإثم وأن الحل يكمن في تحسين الحالة الاقتصادية لكل طبقات الأمة ونشر التعليم الصحيح عن مبادئ الفضيلة والعفاف وأن التعليم لا يقصد به



الدائرة الضيقة "بين جدران المدارس"، ولكن التربية المنزلية والعائلية" هي الأجدى نفعاً والطريف هو وصفه لنتاج التعليم في زمنه بقوله: "مدارسنا لا تخرج رجالاً، بل خدمة للحكومة" رحم الله الرجل النبيل فلو أدرك زماننا فماذا سيكون حكمه؟!.

ومن جهود الدكتور فخري ننتقل إلى جهود رجل آخر جعل إلغاء البغاء على قمة أولوياته وعلى طريقة ما نسميه في زماننا (التوك شو) انبرى الرجل في عقد جلسات مجتمعية وسجالات ومحاورات مع الوزراء المسؤولين وحتى الأمراء من البيت العلوي من أجل حشد الهمم لإلغاء البغاء في مصر إنه الشيخ الجليل (محمود أبو العيون) المفتش بالجامع الأزهر وخطيب ثورة عام **1919** وأحد رموزها ومن مجادلاته حديثه لعدلي يكن باشا رئيس الوزراء (تولى رئاسة الوزراء ثلاث مرات بين عامي **1921-1930**) والذي كان يرى أن الهدف من تنظيم البغاء الحصر في نطاقٍ ضيقٍ ومراقبة المريضات بالكشف والعزل فكان رد الشيخ أن العكس هو الحاصل من انتشار الفسق والأمراض السرية وأماكن البغاء فكان اقتناع رئيس الوزراء في النهاية وكذلك وزير الزراعة وقتها محمد فتح الله بركات (**1926-1927**) كما ضمن الشيخ في كتابه "صفحة ذهبية آراء وزراء الدولة المصرية في البغاء وآراء رجال مسؤولين وأمير من كبار الأمراء "والصادر عام **1928** آراء عدة من بينها رأي الأمير شكيب أرسلان (كاتب

لبناني لقب بالأمير في البيان) ورأي الأمير عمر طوسون وهو من الشخصيات المثقفة والإصلاحية في الأسرة العلوية وصاحب فكرة الذهاب لمؤتمر الصلح بباريس لعرض قضية استقلال مصر والتي نفذها سعد زغلول باشا وأدت لإندلاع ثورة عام **1919** وقد جاء رأيه بحسب الكتاب "ما دمنا مسلمين فلا يسعنا في ديننا إلا أن نستنكر البغاء ونمقته أشد المقت رسمياً كان أم غير رسمي"، كما كان الأمير راعياً لجمعية منع المسكرات وفروعها في المملكة المصرية والتي رفعت "مذكرة إيضاحية للعريضة المرفوعة إلى ولي النعم حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فؤاد الأول نصره الله بالتماس سن قانون بتحريم المسكرات رحمة بالعباد وصونا للبلاد ونزولاً على أحكام الشرع الشريف عام **1928**".

هنا لنا وقفة جديدة مع عبقرية المكان بدأتها في كتابي (مرآة التاريخ) راصداً تلاحم أقطاب الأمة في أتون ثورة **1919** وها هو التلاحم قد عاد من جديد مع قضية اجتماعية لا تقل خطورة عن الاحتلال بل نشأت في ركابه نجد معها تلاحم القوى الوطنية مجسدة في الدكتور فخري ميخائيل والشيخ محمود أبو العيون حتى وإن اختلفت المقاصد.

****



الحلقة الثامنة

نقطة حوار

ليسمح لي القارئ أن نبتعد قليلاً عن مصر في تقديمنا لهذه الحلقة وأن نستدعي البداية من الأندلس دولة إسلامية ناهضة تسعى لتعزيز مكانتها ونفوذها العلمي والديني والعسكري وفي المواجهة مجموعات مسيحية تأبى الاستسلام للوضع الجديد في الأندلس، ولأنها لا تمتلك القوة العسكرية ولا النفوذ الشعبي لتغييره فهي تدعو لمواجهته بشكل من أشكال المقاومة السلبية عبر حث أعضائها على طلب الشهادة وهو في حقيقته انتحاراً والتي عرفت تاريخياً بحركة شهداء قرطبة!!

يبدو المصطلح غريباً.. نعم هو كذلك فقد دخلت هذه المجموعات في خصومة عبر السخرية من الدين الإسلامي ونبيه صلى الله عليه وسلم لكن الحقيقة أن قادة النظام السياسي الجديد في الأندلس لم يكونوا على القدر المطلوب من الحصافة والتعامل بحنكة مع هذا الشكل من التمرد والأولى كان مواجهته بالاحتواء لا التصعيد والدعوة إلى لم الشمل والمصالحات المجتمعية وإظهار وجه التسامح الإسلامي بدلاً من اقتياد جل هذه المجموعات للقتل خاصة وأن بعض المسيحيين كان يدفعهم ضيق الحال وعدم القدرة على دفع الجزية على التظاهر باعتناق الإسلام.

من أشهر قصص هذه الجماعة قصة الفتاة (فلورا) التي ولدت لأب مسلم وأم مسيحية. وفاة الأب المبكرة وقيام الأم بتعليمها تعاليم المسيحية جعلها تختار المسيحية على الإسلام كما أرادت الالتحاق بالدير فلاحقها أخوها المسلم واضطهدها مما دفع الفتاة لتفضيل الموت على الحياة المفروضة عليها فذهبت للقاضي برفقة صديقة لها اسمها (ماريا) وصرحت فلورا بأنها عربية مرتدة عن الإسلام فيما وصفت ماريا الإسلام بأنه اختراع الشيطان فقضى القاضي بإعدامهما ماريا بتهمة التجديف (الاستهزاء) وفلورا بتهمة الردة..

على الجانب الآخر وحينما أصبحت اليد العليا للمسيحية في الأندلس نصبت محاكم التفتيش للمسلمين شديدة الشراسة والدموية بحق المسلمين.. فعل ورد فعل أيهما كان مفرطاً؟! هنا تختلط الأوراق وتكثر الروايات والاتهامات وتتشعب وهو ليس موضوعنا بل ما نرنو إليه كيف نستفيد من الماضي كي لا نزيد من رصيد الفرص الضائعة لدينا وما أكثره..

يتجلى الفعل ورد الفعل بوضوح في حادثة هدم (المنصور بن أبي عامر) حاجب الخليفة الأموي هشام المؤيد بالله والحاكم الفعلي للأندلس لكاتدرائية (سانتياغو دي كومبوستيلا) أو (شانت ياقب قديماً) ومن ثم أمره بنقل بوابات الكنيسة وأجراسها على أعناق الأسرى المسيحيين إلى قرطبة لتكون رؤوساً لثريات المسجد الجامع هناك وحينما دارت الدائرة



واستولى ملك قشتالة فرناندو الثالث على قرطبة أمر بإعادتها مرة أخرى لطليطلة ولكن في هذه المرة على أعناق الأسرى المسلمين!!

بدايات خاطئة ونهايات غير موفقة فلو كان عهد الإسلام بالأندلس عهد للإخاء والعمل بفريضة الشورى وتبادل الرأي والرأي الآخر وإطلاق العنان لحرية العقيدة عملاً بدستور الإسلام في هذه المسألة في قوله تعالى في سورة الكهف: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ) وفي قوله تعالى في سورة الإسراء: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا . قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) لما ظل الصراع والتوجس والحروب قائمة ولما انتهى بمغادرة العرب الأندلس إلى غير رجعة. إن ما أضعناه في الأندلس لم يكن دولة للإسلام بل دولة للسلام والتعايش الإنساني كان يمكن أن تسود ويكتب لها الحياة..

إن الأديان ليست بحاجة لمنافقين يرغمون على اعتناقها أو يتوارثونها دون إيمان حقيقي بل الحقيقة أن الأديان في حاجة إلى رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه يعملون ألبابهم ويميزون بين الأدلة بقلوبهم دون وصاية ولو تحقق ذلك لأصبح الجميع في سعادة باختياراتهم أصابوا الحق أو اقتربوا من منازله أو لم يصيبوه فكل بالغ عاقل له الحرية أن يقرر ما يشاء..

ولقد أصاب الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي حينما فجر هذه المشكلة المجتمعية بشكل جريء وغير مسبوق.

لقد عايشت هذه القصص عن كثب ومع صديقين لكن الخوف والرهبة من مجرد الحديث عن شكوكهما المشروعة دفعهما للاكتئاب فالمجتمع لن يرحمهما مهما كانت دوافعهما ولن يقبلهما في لحمته حتى يلج الجمل في سم الخياط!!.

الصديق الأول كانت قسوة أبيه شديد التدين وجبروته في تحديد مسار حياة أبنائه دون حول ولا قوة منهم يصلون خلفه فإذا ما انفض الجمع أصبحت الألفاظ النابية طريقه في إخضاع أبنائه وعلى الجميع السمع والطاعة تحت قارعة بر الوالدين!! والثاني شاء القدر أن يكون في مجتمع متدين شكلياً وفي حقيقته يجهز على حقوق البشر، فيكفي أن يكون لدي الواحد منهم خادمة ليست على ملته وفي أحشائها جنين فيريد أن يسقطه ويسعى لذلك بكل السبل كي يحمي المجتمع من وليد كافرة!!

قلة الحيلة دفعت الأول للاستسلام وأصبح سجيناً للأدوية النفسية والمهدئة وتمضية الوقت في دراسات لا يجمعها رابط والآخر اجتاز المرحلة عبر تركها للأقدار ومضى في طريقه لا يلوي على أحد حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الحق.

إن استمرار الصراع بين الأديان والمذاهب والطوائف وعدم الاعتراف بحرية اختيار العقيدة على مدار التاريخ لم يتمخض عنه سوى نتيجة واحدة هي انتشار الإلحاد للأسف الشديد للخروج من دوامة الموروثات والصراعات التاريخية منذ قديم الأزل.



نغوص الآن في قصص الماضي من مصر بما يخدم قضيتنا المطروحة للحوار.
ففي الثلاثينات من القرن الماضي أعلن الدكتور إسماعيل أحمد أدهم عضو أكاديمية العلوم الروسية ووكيل المعهد الروسي للدراسات الإسلامية إلحاده في كتيب صغير حمل عنوان: "الرسالة التاسعة لماذا أنا ملحد؟ ونشرت على مجلة الإمام أغسطس **1937** في شكل رسالة للرد على ندوة ثقافية في رمضان ألقاها الدكتور أحمد زكي أبو شادي تحت عنوان "عقيدة الإلوهية " فأفرد مصطفى عبد اللطيف السحرتي المحامي محرر مجلة الإمام المساحة لإسماعيل كجزء من سجال علمي فلسفي..
بالطبع مسألة مثيرة ومحزنة إقدام شاب متعلم وبهذا القدر من الثقافة في هذه الأزمنة على خطوة كهذا غير متهيب النتائج المترتبة على ذلك فكان رد مجلة الأزهر على لسان رئيس تحريرها (محمد فريد وجدي) عقلانياً هادئاً وشديد الذكاء والانفتاح على الرأي الآخر فتحت عنوان "لماذا هو ملحد" يقول: "إن انتشار العلوم الطبيعية، وما تواضعت عليه الأمم المتمدنة من إطلاق حرية الكتابة والخطابة للمفكرين في كل مجال من مجالات النشاط العقلي، استدعت أن يتناول بعضهم البحث في العقائد، فنشأت معارك قلمية بين المثبتين والنافين تمخضت بسببها حقائق، وتباينت طرائق، وآمن من آمن عن بينة، وألحد من ألحد على عهدته. ونحن الآن في مصر، وفي بحبوحة الحكم الدستوري، نسلك من الكتابة والتفكير هذا المنهاج نفسه

فلا نضيق به ذرعًا ما دمنا نعتقد أننا على الحق المبين، وأن الدليل معنا في كل مجال نجول فيه، وأن التسامح الذي يدعى أنه من ثمرات العصر الحاضر هو في الحقيقة من نفحات الإسلام نفسه".

لكن على الجانب الآخر جوبه إسماعيل بعاصفة شديدة من الهجوم ما كانت حالته النفسية لتحتملها في ظني وهو ما سنرى نتائجه فيما يلي. كان أكثر المهاجمين لإسماعيل هو الشيخ (يوسف الدجوي) عضو جماعة كبار العلماء والذي صعد من المسألة في اتجاه لا يحمد عقباه وهو اتهام إسماعيل بالطعن "في دين الدولة وملكها حامي الدين والعلم (يقصد الملك فؤاد)" فأحيل إسماعيل للتحقيق وتم الاكتفاء بتحذيره فضلاً عن تعطيل مجلة الإمام التي كان ينشر فيها مقالاته.

السؤال بالطبع يشغل القارئ لماذا يقدم أكاديمي مرموق على الإلحاد بدلاً من أن يقوده علمه لتقوية حبه لله وتعظيمه؟!!

يحيل إسماعيل أسبابه إلى ظروف نشأته فالأم مسيحية بروتستانتية "ذات ميول لحرية الفكر والتفكير" ذلك لكونها ابنة البروفيسور (وانتهوف) لكنها ماتت وعمره عامين فيما كان أبوه مسلماً متعصباً لكن ظروف الحرب العالمية الأولى وانخراط تركيا العثمانية فيها كانت الشغل الشاغل للأب فأوكل مهمة تربية ابنه الصبي إسماعيل إلى زوج عمته "أحد الشرفاء العرب" والذي أثقل عليه في الواجبات الدينية الإسلامية من أداء الصلاة وتعلم اللغة العربية وحفظ القرآن وهو في سن العاشرة وهو يسخط على



ذلك بقوله "لأنه كلفني جهداً كبيراً (يقصد القرآن)، كنت في حاجة إلى صرفه إلى ما هو أحب إلى نفسي منه (يقصد مؤلفات الفلاسفة الغربيين). في الوقت نفسه كان إسماعيل ينظر بعين الرضا لتعاليم الدين المسيحي والتي لم تثقل كاهله وكان يتلقاها على يدي شقيقتيه اللتين كانتا تدرسان في كلية الأمريكان بالأستانة، فضلاً عن تعلم الألمانية والتركية على أيديهما..

لكن ما ترك أثراً واضحاً بنفس إسماعيل هو سخرية شقيقتيه من المعجزات ويوم القيامة والحساب!!. انكب الفتى ينهل من المؤلفات الغربية لكن أمراً لم يكن بحسبانه حرمه من متعته ألا وهو عودة الأب من ميادين القتال، ثم قراره المجيء لمصر والاستقرار بالإسكندرية، وبدأت المواجهات بين الأب الملتزم والفتى المفكر؛ فالأب "لا يعترف لي بحق تفكيري ووضع أساس عقيدتي المستقبلة" ويفرض عليه شعائر الإسلام فرضاً فما كان من الفتى إلا وأعلن تمرده في صراحة ممتنعاً عن الصلاة قائلاً لأبيه: "إني لست بمؤمن أنا داروني أؤمن بالنشوء والارتقاء" فما كان من الأب إلا وألحقه بمدرسة داخلية بالقاهرة ليقطع عليه أسباب المطالعة لكن عناد وتمرد الفتى كان أكبر فكان يذهب في أيام العطلة المدرسية يومي الخميس والجمعة لدار الكتب المصرية للمطالعة.

الحقيقة أننا أمام قصة تتكرر كل يوم وهي قسوة الآباء في تعليم وإرشاد أبنائهم وبدلاً من الحوار والإقناع يصبح القمع ومصادرة الرأي سيد الموقف فيتسع الشقاق ويسيطر العناد على كل طرف في مواجهة الآخر.

في عام **1927** يغادر إسماعيل مصر إلى تركيا حيث يلتحق بالجامعة ويتخصص في دراسة الرياضيات وفي تركيا يطلق لنفسه العنان فيؤسس جماعة لنشر الإلحاد مع أقران يصفهم بقوله: "أناسا يمكنني أن أشاركهم تفكيرهم ويشاركونني" ولم يكتف بمحلية الهدف بل سعى لصبغه بالصبغة العالمية واتصل بجمعية نشر الإلحاد الأمريكية التي يديرها (شارلس سمث) وتحول "اسم الجماعة إلى "المجمع الشرقي لنشر الإلحاد" كما حاول عمل فروع للجماعة بمصر ولبنان عبر الاتصال بإسماعيل مظهر (صاحب مجلة العصور) وعصام الدين حفني ناصف الأستاذ بجامعة بيروت لكن كل هذه الجهود منيت بالفشل وذهبت أدراج الرياح، فما كان الله ليصلح عمل المفسدين.

الطريف في الكتاب أن إسماعيل اتسعت به دائرة الشك فلم يعد الأمر قاصراً على الدين بل تسرب لتخصص إسماعيل ذاته وهو الرياضيات.

وكأن إسماعيل يروي قصتي مع الرياضيات في المرحلة الإعدادية وشكي في قدسيتها وسلامة نظرياتها فيحكي إسماعيل عن مغادرته تركيا في بعثة لروسيا عام **1931** ودراسته للرياضيات والطبيعيات فيقول: "بدأت بهندسة أوقليدس وجدته يبدأ من الأوليات وصدم اعتقادي في قدسية الرياضيات وقتئذ فشككت في أوليات الرياضة"، وظل صاحبنا مضرباً فترة من الزمن عن الرياضيات وعاد مجدداً لصحبة الفلاسفة وحاول الكثيرون إقناعه دون



جدوى لكن "حدث تحول عجيب لا أعرف كنهه لليوم " دفعه لمواصلة دراسته للرياضيات مجدداً وأن يحصل على درجة الدكتوراه في الرياضيات البحتة من جامعة موسكو عام **1933**.

ويتحدث إسماعيل عن شعوره بعد الإلحاد والذي بدأ فكرة وما لبث أن تحول لعقيدة "ولشد ما كانت دهشتي وعجبي أني وجدت نفسي أسعد حالاً وأكثر اطمئناناً من حالتي حينما كنت أغالب نفسي للاحتفاظ بمعتقد ديني "ويقول في خيلاء واهمة "أنا ملحد ونفسي ساكنة لهذا الإلحاد ومرتاحة إليه فأنا لا أفترق في هذه الناحية عن المؤمن المتصوفة في إيمانه ".

ولكونه شخص يؤمن بالعلم فهو يستحضر من العلم ما يجعله على يقين من إلحاده حتى وإن بدت تعليلاته شديدة السذاجة والسطحية ويمكن لطفل صغير أن يرد عليها ويفندها بسهولة ولكن تعليلاته جاءت كعلاج نفسي لذات أرهقها التفكير وأضناها ما تحمله من ذكريات آلمت روحه فالدكتور البارز وبمنتهى العبث يطرح فكرة الإيمان بالله باعتبارها فكرة أولية تفتقد عناصر القوة الإقناعية الفلسفية وكانت من مستلزمات الجماعات البدائية نتيجة للوهم والخوف والجهل؟! إذاً كيف نفسر هذا الخلق العظيم المحكم إذا كان بلا خالق؟

يطل علينا الدكتور إسماعيل بتفسير سقيم يعكس ضخامة الصراع بداخله وعدم قدرته على رؤية الأمور بميزان دقيق فالعالم في تفسيره

يخضع لقانون (الصدفة) الشامل!! ويضرب على ذلك مثلاً بزهر النرد "وأن لكل زهر ستة أوجه وبما أن كل واحد من هذه الأوجه محتمل مجيئه إذا رمينا زهر النرد فإن مبلغ الاحتمال لهذه الأوجه يحدد معنى الصدفة التي نبحثها ". حقاً ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره عفانا الله وإياكم من أمراض النفس.. الحقيقة أن الهجوم على إسماعيل من العديد من المفكرين علاوة على صراعه النفسي الذي أجزم أنه تأجج واشتعل أكثر من ذي قبل قد دفعه للانتحار في صباح **23** يوليو **1940** على شاطئ الإسكندرية تاركاً ورقة يعترف فيها أنه قتل نفسه بالغرق يأساً من الدنيا وزهداً في العيش فيها ويطلب فيها حرق جثمانه وعدم دفنه بمقابر المسلمين ولم يلتفت أحد لوصيته هذه.

وليس صحيحاً في ظني الروايات الأخرى عن أنه ذهب ضحية للصهاينة أو أطراف دولية أخرى تتآمر على مصر لخشيتهم من سعة ثقافته بالطاقة الذرية!!! فللأسف أن من شيمنا نحن المصريون البحث عن كوامن المؤامرة والإثارة والمغامرة في كل واقعة حتى وإن لم تكن على استقامة مع المنطق تاركين مغزاها الحقيقي ودروسها وعبرها.

إن إدارة مثل هذه التحولات الدينية والفكرية تحتاج لمراجعات هادئة دون ترهيب أو إقصاء.



إننا بحاجة لإعداد الأهل لكيفية تعاملهم مع أبنائهم والتوسع في البرامج المجتمعية الرامية لذلك وفتح قنوات الحوار الديني والعقائدي دون خوف وأن يوكل هذا الأمر إلى رجال دين مدربين قادرين على إدارة حوار مقنع وبناء ومواجهة الحجة بالحجة حتى نخرج بمجتمع متماسك يخلو من النفاق والرغبة في الفرار من الدين.

هل تعلم عزيزي القارئ أن أول ترشيح مصري لنيل جائزة نوبل للسلام كان من نصيب أحد المشايخ الداعين للسلام العالمي؟!

أجل عزيزي القارئ فقد حلقت جهود الشيخ (طنطاوي جوهري) في آفاق العالم ورفعته لمكانة متميزة فهو صاحب (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) والذي سلك فيه نفس مسلك الإمام محمد عبده من ناحية ربط التفسير بالعلوم العصرية الحديثة ولدعوته للسلام العالمي عبر كتابيه "أين الإنسان" و"أحلام في السياسة وكيف يتحقق السلام العام" فقد رشحه الدكتور علي مصطفى مشرفة عميد كلية العلوم بالجامعة المصرية والدكتور عبد الحميد سعيد العضو البرلماني لنيل جائزة نوبل عام **1939** لكن نظراً لحجب جوائز نوبل إثر اندلاع الحرب العالمية الثانية علاوة على وفاة الشيخ في العام التالي مما حال دون تحقيق هذا الحلم المبكر فلما لا نعاود الكرة وأن نحلم من جديد؟!

****

الحلقة التاسعة

السر في ماو

حينما تكون موظفاً حكومياً وترفض منصب العصفورة أو مقعد التطبيل لمديرك الهمام؛ فلا تسأل يا عزيزي لماذا أنت هدف لمطرقة الخوازيق الفضفاضة وسندان الخصومات المتدفقة؟!! لقد كان هذا اختيار الموظف عوضين رغم أنفه حينما قرر أن يعود من سفره بالخارج ويتسلم من جديد وظيفته الحكومية فرئيسه في العمل ديك شركسي منتفخ من الطراز النادر الأستاذ المبجل حمبوزو صاحب الصولات والجولات في إخضاع موظفيه ومحرز الرقم القياسي في النقل والخصومات لمن تسول له نفسه شق عصا الطاعة ولو في الحلم!! وجد عوضين نفسه مع أول أسبوع بالعمل تحت العدسة المكبرة لحمبوزو ويا ويله يا سواد ليله من تطول إقامته تحت هذه العدسة فكان لا يمضي شهر بعوضين المحمل بالمثل والأخلاق الحميدة دون خصومات تتناسب طردياً مع أخلاقه وعرضياً مع مثله!! وفي إحدى المرات الفريدة اختارت الجهة الحكومية عوضين بالصدفة البحتة ليذهب لمؤتمر بالأقصر في غفلة من علم حمبوزو فجن جنونه فراح يحيك المؤامرات دون جدوى فقد قضى الأمر وتذاكر الطيران الداخلي بين يدي عوضين بالفعل.



في الأقصر كان الكساد كبير وكان الأهالي يعرضون منحوتاتهم الرائعة بأسعار متواضعة فاشترى عوضين تمثالاً لقط أسود كبير حتى لا يكسر بخاطر البائع الذي ألح عليه في شرائه ثم حار ماذا يفعل به؟
تذكر عوضين أن القط الأسود كان رمزاً عند المصريين القدماء حمل اسم "ماو" فلما لا يهديه لحمبوزو عسى أن تطوله لعنة الفراعنة وتكون وبالاً عليه؟! فما أن وصل العمل حتى أسرع لحمبوزو حاملاً الهدية وقد غلفها بغلاف من الورق الملون وقد كتب عليها هدية من القلب للقلب!! فرح حمبوزو بهدية عوضين واعتبرها عربون محبة وخضوع ووضعها في صدر مكتبه.. وتمضي الأيام ويغادر عوضين إلى مصلحة حكومية أخرى، ثم يتسرب إلى مسامعه أن حمبوزو تمت مجازاته دون مقدمات أو أسباب بعد عشرين عاماً قضاها في منصبه فلم يتمالك عوضين نفسه من الضحك حينما علم أن حمبوزو قد حمل معه ماو إلى عمله الجديد؟!!..
مسكين صديقنا (حمبوزو) ومثله كثيرون ممن يسيرون في أثر موروثنا الشعبي الهائل في الخرافات والخزعبلات خاصة في الريف المصري فالقط الأسود عندهم علامة على النحس فالجن والشياطين تتجسد فيه والحذاء المقلوب "الشبشب المقلوب" دلالة على الخراب فهو مانع لدخول الملائكة المنزل والمقص المفتوح جالب للنكد بينما انسكاب القهوة يرمز للخير وقرص ركبة العروس في دخلتها علامة على قرب زواج الأخريات ونظر العذراء لنفسها في المرآة يعني أن أحداً من الجن تزوجها وأوقف حظها في

الزواج والخرزة الزرقاء والخمسة وخميسة والعروسة الورقية التي تثقب بالإبرة بأسماء الحاسدين والأحجبة لمنع الربط الجنسي كلها موروثات لا تغادر منازلنا. لقد اكتويت بالأحجبة والعرائس الورقية في صباي فقد كانت أمي متعها الله بالصحة شديدة الاعتقاد في هذه الأمور.

الحقيقة أن كل هذه الخرافات قابعة في الجسد المصري منذ فجر التاريخ لا يتميز بها عصر عن عصر ولا فئة مجتمعية تعلو الأخرى فيها لذلك ستكون عودتنا للماضي في هذه الحلقة من باب الطرافة.

يذكر الدكتور (جورج شحاتة قنواتي) في كتابه (تاريخ الصيدلة والعقاقير: في العهد القديم والعصر الوسيط) والصادر عام **1959** واقعة طريفة عن صحيفة الأهرام بتاريخ **11**فبراير **1958** خلاصتها اكتشاف المارة لدماء غزيرة تخرج من صيدلية في ساعة مبكرة من الصباح فأبلغوا الشرطة خشية أن يكون بالأمر جريمة فلما حققوا مع صاحبها الصيدلي هالهم ما سمعوه!!

لقد استأجر الرجل الصيدلية منذ سبعة أشهر ولأنه سمع عن نحسها (سبحان الله نحس الصيدليات قديم) وأنّ عدداً من الصيادلة استأجروها لكن لم يمكثوا فيها سوى شهور قليلة فأشار عليه البعض بذبح خروف داخل الصيدلية وترك الدماء تسيل دفعاً لعيون الحاسدين وهو ما قد كان!!!

لقد أصابت الخرافات عقلية الطبقة المستنيرة فما بال الطبقات الدنيا؟



بالطبع لن نجد أفضل من (مذكرات فتوة) والمعلم يوسف أبو حجاج صاحبها مع تقبلنا على مضض أن المعلم كان "ناصح" ولا ينطلي عليه زيف الدجالين. كان فقدان أي شيء لدى هذه الطبقات الشعبية يستدعي الذهاب للدجالين لفتح المندل والبحث عن الشيء الضائع أو المسروق فالاتجاه لأقسام الشرطة لم تكن نتائجه مرضية لهذه الطبقات التي تعرف أن النتيجة في مثل هذه الأمور لن يتعدى حفظ القضية والقيد ضد مجهول لذلك فحينما سرقت حيوانات من الزريبة (بقرة مخططة وعجل السيد البدوي وحصان زبلن وهو حصان المعلم) اتجه بلحة صديق المعلم بصحبة "زعزوع بتاع البلغ" للشيخ "طوالع الملوك "لفتح "المندل" والبحث عن الحيوانات المفقودة مقابل "أربعة جنيه حتة واحدة"

ننتقل إلى الطبقات العليا ونقصد أولي الأمر في البلاد فهل يختلف الوضع لديهم؟!

طبعاً إذا ذكر التخلف والجهل والخرافات فلابد وأن نعبر للتاريخ من بوابة المماليك ولنختار السلطان (قنصوه الغوري) مثالاً والذي تنبأ له العرافون بزوال ملكه على يد شخص يبدأ اسمه بحرف سين!! ومن وقتها وأصبح متربصاً بكل أمير مملوكي يبدأ اسمه بحرف السين وبخاصة الأمير (سيباي) نائب الشام الذي كان الغوري متوجساً منه لكن سبحان الله كذب المنجمون ولو صدفوا فخطر السين الذي خافه من رفقائه أتاه من حيث لا يعلم ومن حيث لم ينتبه فانهزمت قواته أمام السلطان سليم الأول في مرج

دابق وزال ملكه واختفى جسده أيضاً ومن العصور القديمة إلى الأحدث ونضرب مثالاً بالملك فؤاد والذي ذكرنا مراراً ثقافته وسعة إحاطته بالمعارف والعلوم لم يسلم أيضاً من الوقوع في فخ الخرافات ففي كتابه **Farewell to Alexandria** يقص علينا الروائي السكندري اليوناني (هاري تزالاس) قصة طريفة نقلاً عن أحد باعة الكتب القديمة بالعطارين سمعها عن أبيه والذي كان يعمل في حدائق قصر المنتزه من أن الملك فؤاد أخذ بوصية عرافة عجوزة بالمحافظة على تسمية أبنائه بحرف الفاء فهو حرف حظه وسعده ودوام ملكه

فكانت أسماء بناته فريال وفوزية وفتحية وفادية وأخيراً ابنه فاروق والذي حذا حذو أبيه لشدة حبه وتعلقه به فأطلق على زوجته الأولى (صافيناز ذو الفقار) اسم (فريدة) فضلاً عن بناته الثلاث فريال وفوزية وفادية وفي المرة الوحيدة التي حاد فيها عن تقليد أبيه حينما أبقى على اسم زوجته الثانية ناريمان دون تغيير لاسم آخر في مطلعه الفاء زال ملكه هكذا رددت الألسنة في إيمان واعتقاد غريبين!!!

من الحكايات الطريفة في العصر الملكي إقدام فاروق عام **1935** وكان لازال أميراً على تسلق قمة الهرم الأكبر وكتابة اسمه عليه تيمناً بذلك قبل سفره لبريطانيا للدراسة بكلية وولتش للعلوم العسكرية وقد ارتبط تسلق قمة



الهرم الأكبر لدى المصريين بطول العمر والفلاح في المسعى وبلوغ المرام ولعل هذا كان مقصد من أشاروا على الأمير الصغير بهذا الفعل!!!

مسألة صعب تخيلها الآن لكنها كانت جزءاً من التقاليد السياحية في منطقة الأهرامات في العهود الماضية وكان لها مختصون يرافقون السياح في الصعود والهبوط وهذا يقودنا إلى سؤال طريف من منا ذهب إلى الهرم ولم يحرص على التقاط الصورة الشهيرة ويده فوق الهرم ومن ابتكرها؟! بالتأكيد الجميع حريص على التقاط هذه الصورة وكان السبق فيها لحفناوي عبد النبي صاحب الرقم القياسي في صعود قمة الهرم والهبوط منه والذي كان يرافق كبار الشخصيات العامة في صعود وهبوط الهرم فكان يصعده في سبع دقائق ويهبط منه في دقيقتين وعلى الرغم من كونه أمياً إلا أنه أجاد ستة لغات عبر تعامله مع السياح..

نعود لموضوعنا مجدداً

الحقيقة أن كم الخرافات بمصر قديماً وحديثاً يحتاج لمجلدات وعلاجها هو عودة الدين لموضعه من الحياة مهيمناً وجزءاً لا يتجزأ من المواد التعليمية بالمدارس والجامعات فهو كفيل بغرس مفهوم التوكل على الله لدى الناس وتعليمهم أن الأمر كله بيد الله عاجله وآجله حاضره وغائبه ولا يسير أحد أمراً في ملك الله إلا بقضاء الله ومراده.

****

الحلقة العاشرة

شجاعة العقول

يقول أمير الشعراء أحمد شوقي "إنّ الشّجاعةَ في القُلوبِ كَثيرةٌ ::: ووَجدتُ شُجعانَ العُقولِ قَليلا"

من أعظم أدوات الأمم المتحضرة في البناء والتشييد استثمار طاقات الشباب وحماسهم وعنفوانهم ومران عقولهم على ثقافة التغيير وأدب الاختلاف وشجاعة النقد بينما الأمم المتخلفة هي من تقف مكتوفة الأيدي معصوبة العينين عن استثمار هذه الثروات واستغلالها وتوظيفها والبناء عليها.

ولكن كيف التواصل مع الشباب وفهم احتياجاتهم؟! ما هي أحلامهم وأمانيهم؟ كيف نستطيع أن نرى ذلك؟ وكيف نشيد قنوات اتصال فعالة معهم؟ وكيف نوفر لهم آليات عصرية للتعبير عن آرائهم ومواقفهم؟!

لأول مرة أجد ماضينا أكثر رفعة وبهاء وتقدماً من واقعنا في هذه المسألة فقد كانت رؤى الشباب وتطلعاتهم حاضرة وقريبة ومسموعة وإن تركت



مهدرة أحياناً كثيرة ولكن فكرة الحضور والتواجد الدائم في حد ذاته مكسب هام كان يمكن الاستمرار فيه والبناء عليه.

كانت وسائل الاتصال في الماضي بين الطالب والأستاذ وبين الطالب والمجتمع في غير أوقات الدراسة هي الصحف والمجلات المدرسية والجامعية والتي كانت تصدر بانتظام بالمدارس والجامعات لتكون لسان حال الطلبة والمعلمين..

وكان يستدعي ذلك الالتزام باللغة العربية الفصحى وتقديم قصص تدعو للقيم والأخلاق وبعض الألغاز التي تنشط الذهن. الصورة لم تكن دائماً مثالية فحينما أجد أمير الشعراء الذي استشهدنا بكلماته في بداية الحلقة يروج لنوع من السجائر الوطنية مثلاً بمجلة الكواكب في سبتمبر عام **1932** قبل شهر من وفاته تحت عنوان " فج " رأي أمير الشعراء أحمد شوقي بك في سيجارة آمون لشركة محمود فهمي يملكها ويديرها جماعة من خريجي التجارة العليا" فلا يسعني سوى الحزن فالمشاريع الشبابية الوطنية التي تبني مجد الوطن وعلينا دعمها بأشعارنا وكتاباتنا للإقبال عليها مسألة نبيلة لكن ليست بطبيعة الحال فيما يخص السجائر وتزيين الاتجار فيها وفي الحض على التدخين الذي يقوض صحة الشباب ويدمر حياتهم ولنستعرض معاً الإعلان المنسوب لأمير الشعراء:

"آمون سيجارة مصرية صميمة فلها من هذه الصيغة لذة يجدها كل من يعرف ما لتجارة الدخان في هذه البلاد من الرواج والانتشار، ويتمنى أن يأخذ المصريون بنصيب من خيرات التجارة، هذا غير اللذة التي نجدها نحن المدخنين وأنا أؤكد لك ان هذا الصنف الجديد من خير ما يدخن تأليفاً وصنعة وجودة تبغ"

نعود لموضوعنا كانت أقدم المجلات المدرسية هي (روضة المدارس المصرية) والتي صدرت عام **1870** وأوكلت رئاستها لرفاعة بك الطهطاوي ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس (أحد خريجي بعثات محمد علي باشا لفرنسا إنه عائد الاستثمار في القوى البشرية يا سادة لا يذهب هباء) وضمت من الكتاب علي فهمي بك ابن رفاعة بك مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن والشيخ حسونة النواوي شيخ الأزهر وعلي باشا مبارك ناظر المعارف والمسيو هنري بروكش مدير مدرسة اللسان المصري القديم وغيرهم...

لا تندهش عزيزي القارئ من اللسان المصري القديم فالحضارة الفرعونية واللغة القبطية كانتا موضع اهتمام كبير قديماً في مصر فنجد كتاب قواعد اللغة المصرية القبطية للدكتور جورجي صبحي عام **1935** (طبعة وزارة المعارف العمومية) وكتاب المطالعة والمحاورات العصرية في اللغة القبطية للسيد عبيد شنوده **1948** وقصص القدماء المصورة وضع إبراهيم نمير



سيف الدين المفتش بوزارة المعارف **1938**وقبل كل هذا كان كتاب رائد علم المصريات الأول أحمد كمال باشا بعنوان (بغية الطالبين في علوم وعوائد وصنائع وأحوال قدماء المصريين) والذي أمر الخديوي عباس حلمي الثاني في عام **1892** وكيل ديوان المعارف يعقوب باشا آرتين (من معارضي فكرة مجانية التعليم) بطباعته على نفقة الديوان.

للأسف لا يوجد أرشيف لهذه المجلات المدرسية والجامعية إلا اليسير منها ولقد تجمع لدي العديد منها عبر هوايتي في الشراء من باعة الكتب القديمة لكنها ليست مكتملة الأعداد بطبيعة الحال لذا سأحاول أن أوجز ما يتعلق بها من طرائف لنكون على دراية بلبنات الثقافة والإبداع التي كانت ببلادنا واختفت. أول ما يجذبك في هذه المجلات هو الشعار الذي يزين صدر صفحاتها في صورة الحكمة التي تعلو غلافها والتي قد تكون شعراً كما بمجلة (روضة المدارس المصرية):

"تعلّم العلمَ واقرأ   تحُز فَخارَ النبوّة

فاللهُ قالَ ليحيي   خُذِ الكتابَ بقوّة"

وقد تكون نثراً مثل "الفضيلة أساس العلم والعلم عنوان مجد الأمم وسر عظمتها" شعار مجلة المدرسة العباسية الثانوية بالإسكندرية عام **1933** و"الشباب قوة وثابة توجهها المدرسة الحازمة إلى طيب الأعمال "شعار عامي

1935 و**1942** من نفس المجلة ومما يلاحظ أيضاً هو الاستقلالية التي تمتعت بها المدارس عن نظارة المعارف في إصدار مجلاتها فأغلب ما وقع تحت يدي يحمل في إشرافه ناظر المدرسة ومجموعة من المدرسين مثل مجلة رقي المعارف الصادرة عن مدرسة رقي المعارف الثانوية العدد الثالث السنة الثالثة بتاريخ **30** مارس **1931** فمدير المجلة صاحب العزة (انظر لباقة التشريف عزيزي القارئ) محمد بك عبد الصمد رئيس فخري الجمعية الأدبية وفي مجلة المدرسة الخديوية ديسمبر **1926** السنة السادسة إشراف صاحب العزة محمد بك لبيب الكرداني كما أنه على عكس السائد من أن الصعيد كان مهملاً في العصر الملكي نجد صحيفة مدرسة قنا الثانوية مارس **1932** العدد الثاني السنة الثانية ومدير المجلة حضرة الأستاذ إبراهيم شعبان ناظر المدرسة ونجد أيضاً كتاباً ذهبياً لمجلة مدرسة أسيوط الثانوية للبنين **1948-1949**.

كما لم يكن لزاماً على المدرسة أو الجامعة التقيد باسمها عند تسمية المجلة فنجد المجلة السنوية لكلية سان مارك العريقة بالإسكندرية (أقامها الرهبان الكاثوليك عام **1928**) تحمل اسم اللوتس وصحيفة كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول **1939** تحمل اسم القبس. الحقيقة أنه ما من مدرسة ولا



جامعة إلا خلت فيها صحيفة. حقاً كان عهداً ذهبياً لليبرالية والثقافة وشجاعة بناء العقول.

لا أجد ما هو أروع وأعلى وأغلى في وصف رسالة هذه المجلات المدرسية مما كتبته اللجنة المشرفة على إصدار مجلة المدرسة الخديوية السنة السادسة ديسمبر **1926** العدد الأول حيث تصف المجلة بأنها "مجمع لشتات المواهب وميدان يحلو فيه التسابق ومعترك يجمل فيه الاعتراك فهي الرابطة بين القلوب ورمز الاجتهاد والنشاط ومنبع الذوق السليم ومقياس الكفاية ومعرفة الواجب".

ماذا لو أعدنا هذا المجد وعملنا على إحيائه وأصبح لكل مدرسة وكلية ومعهد مجلة ثقافية تصدر رقمية بأقلام أساتذته وطلابه ولن أقول ورقية حتى لا يكون الأمر مكلفاً وتكون تحت إشراف النظار والعمداء ووزارتي التربية والتعليم والتعليم العالي بالتأكيد سيكون العائد كبيراً.

من الأدوات الأخرى للتعبير والتواصل مع الجيل الناشئ المسرح المدرسي والذي أهمل تماماً حتى كاد أن يندثر في مصر والعالم العربي إن لم يكن بالفعل قد طواه النسيان.

بحسب كتاب الدكتور سيد علي إسماعيل (تاريخ المسرح في العالم العربي: القرن التاسع عشر) فأقدم ذكر للمسرح المدرسي في مصر كان عام **1870** من قبل طلاب مدرسة العمليات (الهندسة) ومن بعدها تنوعت

المسرحيات بشكل كبير وصار التباري بين المدارس المختلفة على تقديم العروض المسرحية في المحافظات المختلفة ومن عناوين المسرحيات تتضح أهدافها التربوية مثل روايات: ثمرة الصبر -النجاة في الصدق-الحث على التعليم -بر الوالدين-عاقبة الخيانة -سيدنا عمر مع الإعرابي القاتل وضامنه أبي ذر -أخو الخنساء-الابن الشاطر -ناكر الجميل -أصحاب الأخدود -صلاح الدين ومملكة أورشليم وغيرهم.

لكن سنتوقف عند مسرحية (صلاح الدين الأيوبي ومملكة أورشليم) والتي عرضت ضمن الحفلة السنوية لمدرسة رقي المعارف الثانوية بحديقة الأزبكية عام **1931** مع رواية (أصول الفن) حيث بدأت الحفلة بحسب المجلة المدرسية في تمام التاسعة بالنشيد الخاص بالمدرسة: "نحن أشبال الحمى والفداء للوطن" من تلحين "الأستاذ القدير والموسيقى البارع السيد مختار مدرس العلوم بالمدرسة والعضو الفني بمعهد الموسيقى الشرقي ". أجاد الطلبة أدوارهم ومنهم (عبد المنعم عفيفي) رئيس الفرقة والطالب عبد الكريم في دور صلاح الدين وحملت المجلة صور الطالب (باروخ يوسف مسعوده) الذي أدى دور فخر الدين في الرواية. إلى هنا الأمر رائع وجدير بالفخر ويستحق الإشادة لكن منه ندلف للجانب أليس برائع والمظلم لما يحتويه من عبث بحقائق التاريخ والقفز على ثوابته وحوادثه الخالدة.



تستند المسرحية في أحداثها لرواية (فرح انطون) التي حملت نفس الاسم والتي كتبها عام **1914** ونشرت عام **1923** وتدور أحداثها عن الأميرة ماريا أخت رنولد دى شاتيليون أمير الكرك والتي تدفعها الرغبة في الانتقام للتخفي في هيئة مملوك هدية للسلطان صلاح الدين للانتقام منه لقتله أخيها وبقصر السلطان تدبر المكائد وينكشف أمرها لكن صلاح الدين يعفو عنها إلا أنها تعاود الكرة وتستمر في مؤامراتها لقتله فتارة تستميل القائد المملوك أياز لقتل السلطان مقابل الزواج منه وتارة أخرى تتفق مع مجد الدين ابن السلطان على الأمر ذاته وفي نهاية الرواية تحاول قتل السلطان بخنجرها كما اشتملت الرواية على خط درامي آخر مثله تسلل الأمير برنار متخفياً في هيئة ناسك وأطلق على نفسه برنت من أجل إفساد الهدنة حيث راح يؤلب جنود السلطان على ملوك أوروبا ويوقع بين ملوك أوروبا وصلاح الدين، ولا يتوقف العبث التاريخي بالمسرحية عند ذلك بل يمتد إلى التفسير التاريخي للأحداث فموقعة حطين مثلاً نتيجة لأسر واختطاف أخت السلطان!!

الحقيقة أن قصة صلاح الدين لم تقدم ولو لمرة واحدة بشكلها الحقيقي منذ ظهورها للمرة الأولى على المسرح المصري، بل والعربي أيضاً ولنحكي الحكاية من البداية.

كان الظهور الأول لشخصية صلاح الدين الأيوبي ضمن فرقة سليمان الحداد في مارس عام **1893** بدار الأوبرا الخديوية وكان عنوان المسرحية (السلطان صلاح الدين مع ريكاردوس قلب الأسد) تأليف الشيخ نجيب سليمان الحداد!! نعم عزيزي القارئ ابن صاحب الفرقة وتدور أحداث المسرحية في فترة مرض ريتشارد قلب الأسد وحضور صلاح الدين متنكراً لعلاجه ليكتشف مؤامرة المركيز دي منسرات وسرقته لراية ريتشارد حتى يوقع بغريمه وليم حارس الراية ويفوز بالأميرة جوليا أخت ريتشارد وحبيبة وليم والتي تستعطف أخاها دون جدوى للإبقاء على حياة وليم المظلوم وهنا يتدخل صلاح الدين بنخوته العربية وكان لازال متخفياً في ثوب الطبيب ويأخذ وليم جزاءً لعلاجه ريتشارد وتمر الأحداث ويكشف صلاح الدين لريتشارد أنه الطبيب الذي عالجه وأن وليم بريء والمركيز متآمر!!

المسرحية نشرت عام **1929** تحت اسم (صلاح الدين الأيوبي) وعلى الرغم من التأثر الواضح في هذه المسرحية برواية الطلسم للكاتب الإنجليزي السير (والتر سكوت) والتي تدور في فلك نفس الأحداث تقريباً مع زيادة طفيفة أن صلاح الدين عالج ريتشارد بالطلسم والذي ظل وسيلة علاجية للمجانين ومرضى النزيف حتى أوقفته الكنيسة لكونه سحراً وكعادة الشرقيين في عدم نسبة الفضل لأصحابه وهي من الخصال التي تجمعنا



جميعاً وكأنها جين مستأسد في دمائنا فقد قطع الشيخ نجيب الطريق أمام فرضية الاقتباس في إهداء الرواية لخاله الشيخ إبراهيم اليازجي بقوله: (هذه أول رواية تمثيلية وضعتها من عند نفسي غير مستند على التعريب فيها).

ظل النص الذي كتبه الشيخ نجيب حداد هو المعتمد والسائد لدى الفرق المسرحية في مصر وفي البلدان العربية أيضاً ففي العراق مثلاً تحدثنا جريدة العراق في عددها **500** في **12** كانون الثاني (يناير) لعام **1922** عن قيام "التلامذة اليهود" بتمثيل رواية (صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد) على مسرح الرويال سينما.

كما شاركتها الشهرة رواية فرح أنطون: (صلاح الدين ومملكة أورشليم) والتي عرضت بقصر عابدين عام **1942**، حيث قام بدور صلاح الدين جورج أبيض بك وحسين رياض بدور الناسك برنت وعبد العزيز خليل بدور أياز.

لذلك عزيزي القارئ لو تقدمنا بالزمن سوياً لعام **1963** مع عرض فيلم الناصر صلاح الدين فلا تندهش من مصطلحات وأحداث في غير سياقها الزمني مثل: "سلطان العرب" و"أورشليم" ولقاء ريتشارد بصلاح الدين وعلاج صلاح الدين لريتشارد وفرجينيا جميلة الجميلات وكل هذا العبث بالتاريخ الموجود بالفيلم، فالقصة منذ البداية ولدت مشوهة ومبتورة، ولقد كان الكاتب الإنجليزي (السير والتر سكوت) الأب الروحي لهذا التشويه هو

الأكثر وضوحاً في اعترافه بتنحية الحقائق التاريخية جانباً حينما كتب في مقدمته لرواية الطلسم" ويُمكننا على الجُملة أن نقول إنَّ أكثر الحوادث المُساقة في القصة التالية هي من خلْق الخيال، وأنَّ الحقيقة، حيثما توجَد؛ لا أثرَ لها إلا في أشخاص الرواية".

المثير أنه حينما كتبت قصة صلاح الدين بمنظور عربي تاريخي صرف وجاد أضيف للشخصية ما ليس فيها وحملت ما ليست أهل له من أفكار ولخدمة أيديولوجيات لا تمت لواقع الشخصية بصلة كالقومية العربية والوحدة العربية والقضية الفلسطينية ويمكن الرجوع لكتابي تأملات بين العلم والدين والحضارة الجزء الأول للمزيد حول هذه الشخصية. نعم للإبداع مكان في العمل التاريخي وتطويعه لخدمة فكرة أو هدف لكن لا ينبغي بأي حال أن يتغول على الحقائق التاريخية ويسقطها.

إن للمسرح المدرسي قيمة كبيرة في تشكيل الوعي وبناء العقول إن استند على تاريخ حقيقي وقيم مجتمعية هادفة وبناءة ولنا في مسرحيات عبد الله النديم صاحب مجلة التنكيت والتبكيت ومحمود مراد مدرس المسرح بالمدرسة الخديوية عام **1921** وزكي طليمات رائد المسرح وأول مفتش للتمثيل بوزارة المعارف عام **1936** القدوة الحسنة والمثل الصالح.

****



الحلقة الحادية عشر

من هنا نبدأ

"بدون إثارة للعواطف ومشاعر الخوف والشفقة أنا بفكر في الانتحار "
مشاعر من اليأس والإحباط والقنوط سيطرت على الطبيب الشاب دكتور محمود سامي والذي فقد بصره أثناء عمله بمستشفيات عزل كفر الشيخ إبان فترة جائحة كوفيد **19** ويصور الطبيب الحالة النفسية التي تعتصره بقوله: "ليلي يشبه نهاري بستنى الليل ليه مش عارف؟! وأستنى النهار يطلع ليه مش عارف؟! تايه في بحر كبير من الأوهام".

نموذج نادر من التضحية قدمه الطبيب لوطنه دون جزاء يوازي ما قدمه وهو أغلى ما يملكه إنها نعمة الإبصار أعظم منح الخالق العظيم.

حالة الطبيب لخصت حال الأطقم الطبية المصرية الغارقة في أتون الإهمال وعدم الاكتراث لجهودهم من تدني الرواتب ونقص التدريب وفقر الإمكانيات والعمل في ظروف نفسية وجسدية صعبة ولساعات طويلة وغياب الدعم النفسي وهي من أسباب تدني مستوى الخدمات الصحية في مصر..

بلا شك تراجع الوضع الصحي في مصر متراكم منذ فترة طويلة فلو تأملنا قصة إنشاء وزارة الصحة في مصر فهي قصة طريفة ومضحكة وتدعو

للرثاء في الوقت ذاته.. الملك فؤاد على فراش المرض يعاني من اعتلال الكلية وكانت حالته متأخرة للغاية خاصة وأن الملك فؤاد كان يعاني من تقيح اللثة مما أدى إلى خلع أسنانه الواحدة تلو الأخرى وبطبيعة الحال اجتماع مرض الكلى المزمن مع أمراض اللثة عادة ما يزيد من معدلات الوفاة لمصابيها بالطبع لم تسلم الملكة نازلي زوجة الملك من تقيح اللثة فالواضح أن الملك الراحل كان من عشاق التقبيل وأكثر حتى لحظاته الأخيرة بحسب رواية طبيبه ستانكيفتش الروسي الأصل للكاتب محمد التابعي!!.

كان الملك في لحظة ميلاد الوزارة قد أفاق من غيبوبة وإلى جانبه محمد شاهين باشا طبيبه الخاص فشكره على العناية به قائلاً: أشكرك يا وزير! ولأن الصحة كانت لا تتعدى كونها لجنة تابعة لوزارة الداخلية وليس لها وزارة وأضغاث أحلام الملوك أوامر ولو كانوا في سكرات موتهم!! فاستحدث علي باشا ماهر رئيس الوزراء في ذلك الوقت وزارة للصحة في عجالة ولملم شتاتها من مصالح وهيئات شتى حتى يصبح طبيب الملك وزيراً لها.

اللافت أن الأمراض التي استوطنت في مصر لم تكن مدعاة لهذا الإجراء وهو المؤسف في الموضوع ففي كتاب (مبادئ في السياسية المصرية) والصادر عام **1942** لمحمد علي باشا علوبة يرصد أحوال الصحة في مصر في فترة الثلاثينيات وتصدر البلهارسيا لتكون في مقدمة الأمراض المستشرية بالقطر المصري بنسبة **80**٪ فضلاً عن أمراض العيون كالرمد الحبيبي



والصديدي بنسبة **92**٪ وما ينتج عنها من عمى بنسبة **81**٪ جراء نقص النظافة المجتمعية!!. لكن الأدهى في كل ذلك أن نسبة الوفيات في مصر عام **1938** كانت الأعلى عالمياً بنسبة **26.4** في الألف وهو ما يعني أن الوزارة الوليدة لم تغير شيئاً من ملامح الوضع الصحي في مصر وهي مسألة سنناقش أسبابها باستفاضة بنهاية المقال.

ونظراً لتنوع ما ألحق بالوزارة الوليدة من هيئات لذا لا عجب أن تجد تداخلاً غريباً في اختصاصاتها فتجد مزاداً علنياً في **9**أغسطس عام **1949** بسوق المواشي العمومي بالفيوم لبيع حصان أشقر عمره **9** سنوات لجر حنطور وركوب تحت إشراف وزارة الصحة العمومية!! وهو نشاط من المفترض أن يكون تحت إشراف وزارة الزراعة.

كما أن التفتيش الصحي قبل تدشين الوزارة كان من قبل جنود البوليس ولعل أطرف ما يساق في هذا الصدد إقدام أمينة أحمد وبخيته أحمد بضرب مندوب الصحة جندي البوليس (حسن علي محمود) ب "حتة بونيه في وشه" وإسقاط طربوشه على الأرض لضبطه الأولى تلقى القاذورات بجهة "القلاية" بحي بولاق كما جاء في مجلة الدنيا المصورة في يونيو **1929**

السؤال الذي نحن يصدده هل تقدير الأطقم الطبية اختلف ما بين الأمس واليوم؟! سنستدعي للإجابة من الماضي الدكتور (محمد شكري باشا) بالطبع عزيزي القارئ لم تسمع عنه في حياتك ولو استخدمت محرك البحث

جوجل فربما عثرت على نتيجة واحدة أو اثنتين عنه على الأكثر. لكن بالرجوع لخبر وفاته بالطائف المصورة في **22** يناير عام **1917** نجد نبذة كافية عنه فهو من أساتذة الطب في مدرسة القصر العيني وهو ابن الدكتور أحمد بك عبد النبي حكيمباشي البيمارستان المصري وقد تخصص في الولادة وأمراض النساء وعينه الخديوي إسماعيل طبيباً خاصاً لوالدته ومنحه الوسام المجيدي الرابع وبعد إحالته على المعاش منح رتبة الميرميران الرفيعة (من أرفع الرتب العثمانية وتعني أمير الأمراء) ولقب أستاذ في علم الولادة. ما لم تذكره اللطائف أن الطبيب كان نقطة البداية للتحول من الداية والماء الساخن في عملية الولادة إلى إطلاق يد الطب الحديث في هذه العملية وقد أشرف الدكتور محمد شكري على ولادة الأمير أحمد فؤاد نجل الخديوي إسماعيل وقد قامت بتوليده (جليلة صالح تمرهان أفندي) المدرسة بمدرسة القوابل ولها كتاب (محكم الدلالة في أعمال القبالة) **1869**وقد تتلمذ على يدي الدكتور شكري الدكتور نجيب محفوظ باشا أحد أعلام أمراض النساء والولادة ويقال أنّ أديب العالمية نجيب محفوظ ولد على يديه ولهذا تسمى باسمه.

حقاً إن ما يميز هذه الأزمنة هو التطوير والتحديث وهو ما اندهش لتلاشيه اليوم فلقد جمعني القدر بصيدلي في موقع إداري هام كان دائم الشجار مع المرضى لا يمر يوم دون شتائم متبادلة بينه وبينهم وكان يأتي يومياً وفي يديه



قرطاسين أحدهما لمعلقتين بالعدد من الشاي والثاني لمعلقتين من السكر وكان يزنهما بمقياس الذهب وكانت هذه أقصى طموحاته وهذا من عجائب ما صادفته من بشر في حياتي العملية بينما حينما بحثت بين عناوين الكتب القديمة التي تجمعت لدي من مؤلفات النخب الطبية قديماً هالني ما وجدت من إسهامات ثقافية جليلة المتصل منها بالمهنة وغير المتصل والأمثلة على ذلك:

1-كتاب (القول المبين في مختصر المادة الطبية والأقربازين) تأليف (عبد العزيز أفندي كامل) صيدلي بالقصر العيني **1896.**

2-كتاب (مظلوم في المادة الطبية والأقربازين) تأليف (فيتاليس مظلوم الأجزاجي)**.1912**

3-كتاب (تاريخ الطب والصيدلة والكيمياء عند قدماء المصريين) تأليف (عبد العزيز أفندي عبد الرحمن) صيدلي أول مستشفى الدمرداش باشا **1939**بتقديم حضرة المحترم الدكتور إبراهيم رجب فهمي بك أستاذ علم العقاقير بكلية الطب المصرية وحضرة الأستاذ محمود حمزة بك أمين شرف بالمتحف المصري ومفتش عام مصلحة الآثار المصرية.

4-المعجم الطبي الأول الذي لم ير النور كاملاً والذي حمل اسم "الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية وقد وضعه العالم اللغوي (محمد عمر التونسي) بمعاونة ومراجعة مجموعة من الأطباء.

5-قاموس عربي إنكليزي تأليف المرحوم وليم طمسن ورتبات أستاذ اللغة الإنجليزية في المدرسة الطبية الخديوية بالقصر العيني سابقاً بمشاركة الدكتور يوحنا ورتبات والدكتور هرڤي پورتر **1912**

6-كتاب نظارة المعارف العمومية (المادة الطبية) تأليف جناب المسيو دنكلر مدرس الأقرابازين بمدرسة الطب بالقصر العيني ومفتش عموم الأجزاخانات بمصلحة الصحة **.1908**

7- قاموس الطب بالعربية والفرنسية لصاحبه محمود رشدي البقلي أفندي والذي أصيب أثناء عمله بالمنوفية باضطراب عقلي لازمه فأحيل على المعاش ومات به.

8-الأربطة الجراحية لإبراهيم بك النبراوي الذي بدأ حياته بائعاً للبطيخ ودفعه الطموح لدراسة الطب بمصر وفرنسا حتى أصبح أستاذاً بمدرسة طب القصر العيني.



نعود لقصتنا المحورية مرة أخرى عن الدكتور أحمد شكري ووفاته وهل لاقى جزاء إحسانه؟!! طبعاً ما دمت في مصر فستلاقي جزاء الإحسان أضعافاً مضاعفة!!

في **5** فبراير **1917** وعلى صفحات اللطائف المصورة أيضاً نشر الأستاذ (فؤاد أبو السعود) مقالاً تحت عنوان (الرجال هنا وهناك) تعليقاً على عدم تكريم الدكتور شكري وتجاهل جهوده فينبه إلى ضرورة الاعتراف بفضل "الرجال العاملين الذين خدموا الأمة بعلمهم وعملهم ومشاريعهم" ونيل ما يستحقونه من "آيات الثناء والحمد"، وتخليد ذكراهم ويرى في ذلك برهنة للأمم الأخرى "أننا أمة حية تذكر المعروف ولا تجحد فضل العاملين من أبنائها".

ويقارن بوضع المسؤولين بالأمم الغربية وضرورة أن نأخذ عنهم إقرارهم بفضل العاملين من أبنائهم "كبيراً كان أو صغيراً ".

فيرى تقاعس من الحكومة ووزارة المعارف على الأخص في توديع الدكتور شكري، وكذلك من تلامذته وهو ما يعتبره "الخطأ العظيم" و"علة العلل" ويحذر من تأثيره المستقبلي على العاملين بالدولة "لما يراه الخلف من جزاء السلف"، ثم يصف لنا روشتته للعلاج فبلوغ الكمال يقتضي الأخذ بيد العاملين الأحياء، وتشجيعهم وتخليد ذكرى "الخادمين بعد مماتهم"؛ لأن في ذلك "إحياء لنا".

لله درك يا أستاذ فؤاد لقد وصفت لي خبراً كأني أشهده فالعلة باقية، ومن الدروس التي تعلمتها من خروج والدي على المعاش، ألّا أجعل العمل الحكومي هدفاً في حد ذاته؛ فهو يسلب العمر دون عرفان أو شكر، وأن أجعله وسيلة لا غاية لبلوغ أهداف أكبر في طريق طموحاتي وغاياتي.

الجميل في هذا المقال كانت كلمات التمهيد لكاتبه فالمعارضة ليست إثماً، بل مشاركة وإصلاح، فنجد الأستاذ فؤاد مبتهجاً بإطلاق "الأمم المتحضرة الحرية لكل ناقد من أبنائها "وخضوع "كبيرها وصغيرها لسلطان الحقيقة" واحترام الآراء المختلفة، وكان نتاج ذلك أن "أصبح في استطاعة كل فرد تحبيذ ما يراه حقاً واستهجان أي عمل يرى فيه ما يمس كرامة أمته أو يسجل عليها الإهمال والضعف".

بالطبع عزيزي القارئ ستقول وهل يصلح مثال واحد لنبني عليه قضية نكران الجميل، لذا سأعطيك مثالاً آخر من الماضي وما أكثر الأمثلة: محمد علي باشا البقلي الجراح المصري وأول مدير مصري لمدرسة طب القصر العيني وصاحب مجلة (اليعسوب)، أول مجلة طبية في مصر وقد شاءت الأقدار وهو في سن كبير أن يرافق حملة الخديوي إسماعيل على الحبشة بقيادة السردار راتب باشا، ومع الهزيمة المنكرة للحملة المصرية سقط البقلي باشا مع من سقطوا أسرى في يد الأحباش واقتيدوا إلى المعسكرات وكان في نفس القيد مع جندي سوداني صغير السن فأمر أحد الجنود الأحباش الجندي السوداني بقتل البقلي باشا لبطئه الشديد بحكم السن



والتخلص منه، فما كان من الجندي السوداني إلا أن امتثل للأمر تحت وطأة التعذيب، وبقيت جثة الرجل العجوز المسكين في العراء فماذا بقي من سيرته الآن غير أحد شوارع القاهرة؟!

رغم كل هذا فالطب قديماً كان بخير، يا له من زمان جميل! وبالطبع نعدم فيه ما نسميه الآن الأخطاء الطبية، أليس هذا ما يدور بخلدك عزيزي القارئ؟! رويداً رويداً لا تكن متفائلاً كثيراً يا عزيزي، ولا تصدق أن مصر الدولة الوحيدة التي لو عادت لماضيها ستتقدم، فلا يوجد زمان يخلو من الأخطاء، ففي وثيقة نادرة متداولة على الصفحات التاريخية التراثية تعود لعام **1875** بمدينة بورسعيد، تحمل شكوى بإمضاء "علي عبد محب للوطن مراعي واجبات الإنسانية " ضد المدعو (علي حسن) شيخ حارة قسم أول بورسعيد وحكيم صحة البلد المسمى (حضرة ماجي) لاستخراجهما تصريح بدفن ولد يسمى (محمد بن علي الصعيدي)، دون توقيع الكشف الطبي عليه قبل الإذن بالدفن، والمختوم بختم السانيتاه (الصحة) حيث فوجئ الحضور أثناء تغسيله بأنه لازال حياً يرزق.. خطأ طبي نشاهده حتى اليوم.

وقد يدخل المريض بعلة ويتماثل للشفاء منها، ثم يموت بأخرى كالقصة التي يسوقها لنا الطبيب الإنجليزي (آرثر سيسيل ألبورت) في كتابه (ساعة عدل واحدة). الكتاب الأسود عن أحوال المستشفيات المصرية) والذي

استلهم عنوانه من حديث نبوي ومن الكتاب الأسود لمكرم باشا عبيد ضد مصطفى النحاس باشا من أن طفلة دخلت المستشفى تعاني التهاباً كلوياً وبعد تعافيها وبينما تجول بين الأقسام حافية القدمين أصيبت بالتهاب رئوي وماتت بسببه، والحقيقة أن التجول بين أقسام المستشفى والممرات والتطلع من الشرفات من شيم المريض المصري قديماً، كما سجلها ألبورت وحديثاً أيضاً، فقد شاهدت مريضاً منوماً بالقسم الرجالي في أحد المستشفيات يخرج لشراء علبة سجائر، ثم يعود للمستشفى مرة أخرى!!

إن ما نعانيه اليوم وللأسف الشديد هو وليد الأمس ومحصلة تراكماته والأمر ليس بمستغرب، فقد بقيت التركيبة غير المتجانسة للوزارة على حالها علاوة على غياب التوصيف الوظيفي للأطقم الطبية وحدود الممارسة الإكلينيكية لكل تخصص والتداخلات في المهام على عشوائيتها دون تحديد حتى وصلنا اليوم لمعارك بين الأطباء واختصاصيي العلاج الطبيعي وخريجي التربية الرياضية وبين الأطباء والصيادلة على لقب عرفي كالدكتور والمسموح والممنوع في صرف الدواء وقضايا أخرى كثيرة غيبت سلامة المريض وحقوقه عن أجندة القطاع الصحي في مصر، وكان يمكن الحيلولة دون ذلك بتشريعات منضبطة تعالج هذه التداخلات وتحدد المهام والمسؤوليات للقطاعات الطبية بوضوح تام.

الحقيقة أني أجد أن أحد أهم علل الوزارة الإصرار على تقلد قيادتها لطبيب فالمنظومة الصحية تقوم على أطباء وتمريض وصيادلة وفنيين مما يقتضي



فرص متساوية في التدريب والترقيات وهو ما لا يمكن تحقيقه ورأس النظام الصحي في قبضة فصيل واحد لذلك فالفرص المتساوية في تقلد منصب وزير الصحة من داخل الأطقم الطبية وخارجها يضمن حيزًا كبيراً من التوازن والمساواة داخل المنظومة.

إننا نحتاج إلى مزيد من العناية بتنظيم البيت الطبي المصري وتوزيع الاختصاصات بدقة وإلغاء النقابات الحالية واستبدالها بمراكز للتعليم المستمر والتدريب والتوسع في الزمالات المهنية وكما تقام التماثيل لكبار القادة العسكريين والسياسيين والاقتصاديين فلتقام تماثيل مماثلة للأطقم الطبية التي لا تقل في تضحياتها عن هؤلاء في ميادينهم والجائحة أكبر مثال على عظم هذه التضحيات.

****

الحلقة الثانية عشر

بين الشرق والغرب

صراع طويل بين الشرق والغرب لمن يسود العالم بثقافته ويطوع دفتيه بقوته. إمبراطوريات من هنا وهناك قامت وتداعت إلى أن ساد الإسلام لقرون كمنهج ديني أخلاقي وأيديولوجية سياسية لكن غروب شمس الإسلام من العالم تجسد مع سيادة الدولة العثمانية على أجزاء من العالم العربي والأوروبي، فمحت الهوية العربية والإسلامية وأهدرت كل ما فيها من إمكانيات بشرية وعلمية ومادية، فتسلل الوهن والمرض إلى جسد الأمة العربية وغرقت في مستنقع من الجهل والفوضى وغياب الهوية وتراجعت في كل الميادين الفكرية والأدبية وقد كانت في صدارتها، ولم لا.. وجل اهتمام دولة الخلافة سلب أموال الشعوب بلا وازع من ضمير؟!

هل تعلم يا أخي القارئ أن كرسي عرش السلطان العثماني المصنوع من الذهب والمرصع بالأحجار الكريمة جلب من مصر وكان من صنع درويش بك المصري وإبراهيم بك الجواهرجي لصالح والي مصر الألباني الأصل العثماني التعيين (حسن باشا الخادم) ومن كنوزه وكان حجم الذهب به بحسب كتاب (تقويم النيل و عصر محمد علي باشا الجزء الثاني لأمين باشا سامي) **80**ألف بندقي. كل هذا الثراء لوالي مصر العثماني كان مصدره



الضرائب الباهظة على سواد الناس والرشوة ولما عزل بسبب تضخم ثروته خرج من القاهرة خفية ومن باب المقابر كي لا يفتك به المصريون كما أصبحت مهمة الوالي الجديد إبراهيم باشا الذي خلفه هي البحث عن كنوز سلفه حسن باشا وتسليمها للباب العالي ومنها هذا العرش. إنها أموال الشعوب المقهورة يا سادة تصنع عروش السلاطين والاسم خلافة!!

مرت القرون والعالم العربي والإسلامي على هذه الدرجة من الوهن والانحلال فكان سقوطه لقمة سائغة بين فكيّ الغرب الاستعماري مسألة هينة ومتوقعة بين حين وآخر...

إحقاقاً للحق لعب الاستعمار الغربي دوراً كبيراً في إيقاظ العالم العربي والإسلامي ووضعه على أعتاب النهضة العلمية الحديثة لكن الاستعلاء الغربي وعلو قدر الرجل الأبيض على باقي الأجناس جعل الغرب في مستعمراته غير مرحبٍ به ومتهماً دائماً.

لكن ليسوا سواء فقد كان من الأجانب أساتذة ومعلمين كانوا على درجة عالية من النبل والرقي والرسالة السامية، فكما كان بالماضي اللورد كرومر كنموذج للرجل الأبيض المستعلي على المعتقدات الشرقية والمعتبر أن الإسلام من أسباب تخلف هذه الأمة (ناقشنا هذا بالتفصيل في كتاب على هامش التاريخ والأدب) كان في المقابل اللورد هيدلى الذي أبدى احتراماً للإسلام واعتنق تعاليمه السمحة وكتب كتابه الشهير (إيقاظ الغرب للإسلام) وقد حمل الكتاب لقبه الجديد :"تأليف حضرة صاحب الفخامة

سيف الرحمن رحمة الله فاروق اللورد هيدلى رئيس الجمعية البريطانية الإسلامية" وقام بتعريبه عام **1922** (إسماعيل حلمي البارودي) العضو بالجمعية البريطانية الإسلامية.

فكيف كان الأثر الذي تركاه الرجلان في وجدان المصريين الأول حينما عزل فرح المصريين "أصحاب الجلاليب الزرقاء كما كان يسميهم" وحينما رحل اقتصر نعيه وتأبينه على كبار رجال الدولة أما الثاني فحينما زار مصر استقبله الناس عن بكرة أبيهم في مشهد لا يضاهيه سوى استقبال سعد زعيم الأمة.

في كتاب (الشرق والغرب) للأستاذ أحمد أمين الصادر عام **1955** يوضح لنا وعن معايشة للفكر الاستعماري الإنجليزي في مصر أن الفكر الصناعي السائد في أوروبا أعلى من قيمة النظام والمنفعة بينما المجتمع الزراعي في الشرق أعلى من قيمة الارتباط الأسري لذا فمن غير المستغرب رفض الأسر المصرية للزواج المختلط. تحدث الكتاب أيضاً عن أمر اعتبره كان موفقاً جداً في طرحه وهو أحد أمراضنا حتى الآن ألا وهو أن الشعور بالحقوق أعلى وأكثر من الشعور بالواجبات وهو "أمر طبيعي ذلك أن الحقوق مطالب والواجبات تكاليف" لكنه ليس طبيعي لدى الشعب المصري الذي دائماً ما يطالب بحقوقه من الدولة لكن أبداً لا ينظر بعين الاعتبار لواجباته المنوط



به القيام بها فتجد الموظف يطالب بزيادة الراتب فيما يأتي متأخراً كل صباح ويعطل مصالح الناس بكل أريحية وفخر!!.

إن دأب الشرقيين على المطالبة بحقوقهم وقد تكون عادلة في بعض الأحيان دون القيام بواجباتهم في المقابل أولد لديهم رغبة مستمرة في التواكل، ولعل في قصة كرومر الطريفة حول حضوره أحد الأفراح وسماعه لعبده الحمولي وهو يغني "حبيبي راح هاتوه لي يا ناس" فاستفسر من مضيفه عن معنى الكلمات فلما عقلها أبدى اندهاشه من هذا التواكل الشرقي قائلاً: "حتى في العشق لا يكلف المحب عندكم خاطره بفعل مباشر. لا يريد العاشق أن يسعى لحبيبه بنفسه وإنما يطلب من الناس أن يجيؤوا له به ".

نعود لموضوعنا مرة أخرى

دفع أتون الحرب العالمية الأولى العالم الصناعي المتقدم لكساد كبير ودمار وخراب وفقر سيطر على حال الشعوب الأوروبية فيما حافظت الدول العربية ومن ضمنها مصر على نفس الحجم من ثراء أغنيائها الذين ازدادوا غنى، بينما ازداد الفقراء فقراً. لذا لا عجب أن نجد بعد هذه الحرب حالات المصاهرة بين الشرق والغرب تتزايد والطريف أن دعوات الزواج المختلط حملتها أقلام بعض الشعراء والكتاب في ذلك الزمان لكسر جمود التفكير الشرقي والزواج من أجنبيات للحاق بركب الحضارة ومن هؤلاء الشيخ محمد يونس القاضي؟!

أجل عزيزي القارئ لا تأخذك الدهشة فهو صاحب نشيد "بلادي بلادي" النشيد الوطني لمصر وصاحب أيضاً "إرخي الستارة اللي في ريحنا "وأغنية هابطة لأم كلثوم مطلعها "الخلاعة والدلاعة مذهبي"!! كتب القاضي قصيدة نشرتها اللطائف المصورة في **2** إبريل عام **1917**، تحت عنوان "زواج الأقباط" يقول فيها:

"يكفي واحدة أجنبية عاقلة

في استطاعتها تهذيب عائلة

مش بدال ما تكون في أمه جاهلة

يوصفونا أمة راقية عاملة"

ويقول أيضاً:

"فيها إيه لو مصري مسلم عنده غية

في تقدم موطنه وكان م الرعية

وتزوج مسلمة تكون ألمانية

أو فرنساوية أو غادة روسية

وخصوصاً بعد ما ييجي السلام والحروب تتفض من كل الدول"

بالطبع هناك العديد من قصص الزواج الناجحة بين الشرق والغرب أشهرها زيجة الدكتور طه حسين من السيدة (سوزان بريسو) الفرنسية.



لكن ثمة قصتين انتهتا بشكل درامي ونالتا من اهتمام الرأي العام المصري قسطاً غير قليل لسنوات طويلة:

القصة الأولى: بطلها هو الثري المصري أو البرنس أو أمير الشباب (علي بك فهمي كامل) والذي ورث ثروة طائلة عن والده المهندس الزراعي المصري العصامي... ربما سمعت عن هذه القصة عزيزي القارئ مراراً، وقد كتب عنها كاتبنا الكبير الأستاذ صلاح عيسى تفصيلياً في كتابه (مأساة مدام فهمي) لكن بالتأكيد ولدت القصة لديك في كل مرة يقع ناظريك عليها سؤالاً ما سر هذا الثراء الفاحش لأحد أبناء الطبقة المصرية المتعلمة؟! بالتأكيد ليست العصامية وحدها هي السبب بل يكمن السر في مصاهرة الأب للأمير حيدر فاضل نجل الأمير مصطفى فاضل شقيق الخديوي إسماعيل.. ثراء الأب انتقل للابن وشقيقاته ومن أجل اكتمال الوجاهة الاجتماعية تزوج الابن من فتاة فرنسية دونه حسباً ونسباً هي (مارجريت ميلر) أو منيرة هانم.

كان الوجيه شخصية عامة ومعروفة وقد نشرت اللطائف المصورة خبراً في **22** نوفمبر عام **1920** عن تبرعه بمبلغ ثلاثة آلاف جنيه سنوياً للتعليم في مصر وهو مبلغ ضخم بمقاييس ذلك العصر وكان يا ما كان!!.

سرعان ما زال الصفاء و اتسع الخلاف بين الوجيه الثري وزوجته الفرنسية وانتهى الأمر بشكل تراجيدي فأقدمت على قتله بثلاثة رصاصات في فندق

سافوى بعاصمة الضباب لندن عام **1923**، واستطاع محاميها السير مارشال هول تحويل القضية إلى قضية رأي عام هدفها محاكمة الشرق ومحورها الاختلاف بين الشرق والغرب منتصراً للغرب المحمل بالأخلاق والمتجسد في شخص مارجريت القاتلة دفاعاً عن نفسها على حساب الشرق المتخلف الغارق في العنف والسادية والمتجسد في شخص القتيل علي بك الذي كان يسيء معاملتها، وبعد هذه المرافعات حصلت مارجريت على البراءة لكنها لم تكتفِ بذلك، بل دخلت في نزاع قضائي مع ورثة الوجيه (عمه وشقيقاته) على الميراث وادعت أنها حامل لكن حملها قد سقط وحاول أحد السوريين ويدعى يوسف كساب (كان يملك بمصر كلوب كساب وحاليا مكانه سينما ديانا) مساعدتها في إثبات أنها وضعت بالفعل عبر تزوير شهادتي ميلاد ووفاة لطفل لها من الوجيه المغدور أملاً في الحصول على نصيب أكبر من التركة الهائلة كزوجة وكأم لطفلٍ متوفٍ لكن خلافاً نشأ بينهما علاوة على استحالة تنفيذ الخطة لأن كشفاً طبياً وقع عليها أثناء التحقيق، ولم يثبت فيه حملها وأبلغت عنه وحدث تراشق بالاتهامات بينهما عن صاحب هذه الخطة الجهنمية.

ولأن غير المسلم لا يرث المسلم طبقاً للشريعة فقد استمرت مارجريت في التظاهر بالإسلام، وكذلك أشهرت إسلام ابنتها لكن انتهت القضية بحكم محكمة مصر الشرعية في أبريل عام **1929**، بعدم أحقية مارجريت



في تركة زوجها المغدور لعدم اقتناع المحكمة بأن جريمة القتل كانت دفاعاً عن النفس.

حظيت القضية في حينها على اهتمام كبير بين الأوساط الشعبية في مصر فكانت الصحف تنفذ عن آخرها إذا احتوت على أخبار جديدة عن القضية فقد ألهبت هذه القضية مشاعر ووجدان الشعب المصري المعروف بعاطفيته وولدت تعاطفاً جماً مع القتيل وأسرته تجاه ما يمكن أن نسميه الوقاحة ليس فقط في القتل والإفلات من العقوبة بل والسعي الحثيث للاستحواذ على تركة الراحل المسكين.

كما دخلت السينما على الخط ومثل (يوسف وهبي بك) فيلم (أولاد الذوات) عام **1932**، وعلى لسان البطل يوسف وهبي وهو يكتشف خيانة زوجته الفرنسية كانت عبارة " «ألف عرفوكي قبل مني وألف عرفوكي بعد مني.. يا جوليا يا مرات الكل يا مزبلة!» " عبر عن إحساس سائد لدى الرأي العام المصري باستعظام الوقاحة واستفحالها وفداحة جرم الزوجة القاتلة وهو ما دعا الرقابة في مصر للعمل على وقف الفيلم لأنه يؤجج من مشاعر الكراهية ضد المرأة الأوروبية ويحملها كل الآثام... الفيلم جاء أيضاً معبراً عن وجهة نظر عائلة فهمي وتحديداً عائشة فهمي التي سعت للطلاق من زوجها طبيب النساء والولادة (أحمد سعيد) ودفعت له مبلغاً كبيراً للطلاق كي تتزوج من يوسف وهبي في باريس رغم معارضة أسرتها لهذه الزيجة

باعتبار أن عمله بالفن يحط من قدره فضلاً عن كونها تكبره بستة عشر عاماً، لكنها تمردت على كل هذا ووضعت أموالها في سبيل تحقيق أحلامه وربما كان الفيلم في حقيقته محاولة لاسترضاء أسرتها وقد ساعدته أيضاً في تحقيق حلمه بإنشاء مدينة رمسيس للفنون، لكن لم يطل الزواج طويلاً نظراً لغيرة عائشة الشديدة وتمرد يوسف وهبي على حياة الاستقرار العائلي والأسري واستغراقه في الملذات المحرمة.

كما جسدت السينما المصرية اختلاف العادات بين المحيطين الشرقي والغربي ورصد أسباب عدم الانسجام في فيلم (ياقوت أفندي) عام **1934**، للراحل نجيب الريحاني لكن الفيلم كان أكثر ذكاء في طرح إمكانية الانسجام وعلاج المشكلات بالاحتواء والصفح وهو ما ظهر بنهاية الفيلم.

القضية الثانية التي حلقت في الأفق وبدون إنذار كانت في نوفمبر **1928**، وبطلتها وجيهة هانم الفتاة الأرستقراطية كريمة محمد محب باشا وزير المالية والمعارف السابق في حكومة (يحى باشا إبراهيم)، حيث كانت تقضي إجازتها الصيفية في فيينا لكن ليست كل ليال الأُنس في فيينا كما أطربتنا الفنانة أسمهان!!

حيث أقدم على قتلها الكولونيل في الجيش النمساوي البارون (فيلز جانتر) الذي كان يريد الزواج منها، ووسط سرور بك قنصل مصر في فيينا وسيدة تدعى ماتيلدة أمين بك للسعي لدى والدها.



طمعاً في ثرائها ليكون عوناً له في سداد ديونه الكثيرة، لكنها كانت من الذكاء بمكان أن أدركت حقيقة هدفه مبكراً، وحاولت الفكاك من شباكه وشجعها والدها على ذلك وعزمت على العودة لمصر وتعللت برغبتها في الزواج من أمير مصري غني بناء على رغبة والدها الباشا فلما بلغه ذلك أرداها قتيلة بخمس رصاصات في حفلة موسيقية كانت حاضرة بها وقد أثبت الطبيب الشرعي عذريتها وحكم بالسجن على القاتل.

الطريف أنّ والدها محب باشا دخل التاريخ من أوسع أبوابه عقب هذه الحادثة علاوة على كونه أول وزير للزراعة عام **1913**، عقب إنشائها كما كان بطل قضية غاية في الطرافة وهي عمل أول صناديق انتخابية في مصر حيث كان الشعب المصري على موعد مع أول انتخابات ديمقراطية ونزيهة في تاريخه بين سعد باشا زغلول ويحي باشا إبراهيم رئيس الوزراء ووزير الداخلية والتي انتهت بهزيمة ساحقة ليحي باشا حتى في دائرته منيا القمح عام **1924**.

كان الوقت المتبقي على موعد الانتخابات ضئيلاً، ويتخلله عدد من الإجازات (كم يا ترى عدد الإجازات في العهد الملكي؟ بحسب تقويم **1931** الصادر عن قلم نشر مطبوعات الحكومة والمطبعة الأميرية **12** عيد تتعطل فيها مصالح الدولة و**45** أعياد دينية خاصة لا تتعطل فيها مصالح الدولة) فاتفق محب باشا مع أحمد عبود باشا أحد أساطين الصناعة في مصر

على تنفيذ كافة الصناديق في ورشه بالمخالفة للاتفاق مع مراقب المشتريات الإنجليزي مستر (جرينود) على تنفيذ نصها فقط والنصف الآخر مع الورش الحكومية ولما علم المراقب الإنجليزي بذلك شكا للجنرال اللنبي المعتمد البريطاني في مصر والذي صادر الصناديق من ورشة عبود باشا واشترط معاقبة محب باشا وهو ما قد تم بنقله من وزارة المالية لوزارة المعارف.

إن التقارب بين الشرق والغرب أمر سهل المنال ولقد حاولت في روايتي (خريف الأندلس) أن أرسل رسالة مفادها أن بإمكاننا أن نشيد بين الشرق والغرب حضارة واحدة نتكامل فيها لا أن نتصارع نتصادق لا أن نتناحر والدين فيها يكامل المدنية والعلم فيها يسوس الجهل ويقومه، وبذلك نعيد تسطير التاريخ بشكل جديد ونعيد ناموس الكون ودستوره إلى نصابه والذي يتجلى في قوله تعالى في سورة الحجرات الآية **13**: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا)...

ويشهد الكون السلام والطمأنينة مجدداً.

سؤال على هامش هذه الحلقة هل من أمل يرتجى من رسالة عبر رواية؟ بالتأكيد سيكون ردك عزيزي القارئ أن رسائل خطيرة في الماضي حملتها روايات، ولأنك ذكرت الماضي يا عزيزي سأرد عليك أيضاً من الماضي على لسان فرح أنطون في مختاراته بسلسلة (مناهل الأدب العربي) حيث يلخص حال الرواية في الشرق على نحو ما نحن عليه اليوم تماماً؛ فالقراء" يعتبرون



الروايات عالماً خيالياً يُلهى به ساعة أو نصف ساعة فلا يطلبون فيه غير قطع الوقت" مما انعكس سلباً بطبيعة الحال على إبداع الكاتب فيقول في ذلك "قلّما نرى كاتباً يجهد قريحته ويكون فكرة وينضج رأيه في وضع رواية مهمة لأنه يعلم أن الفائدة التي تنشأ عنها لا تعدل التعب الذي يبذل في تأليفها وطبعها" ومن خلاصة تجربة الأستاذ أنطون نستطيع أن ننطلق مجدداً ونعاود المحاولة في بناء رواية جادة ليست للتسلية ولكن تحمل فكرة بناءة ورسالة واضحة ويا حبذا لو رصعت بالعلم وهذا ما فعلته في روايتي (ساعة عدل) ولازلت أنتظر قطف ثماره..

لمَ لا والإيمان بالفكرة من عظيم السجايا؟ والعمل على بلوغها من فضائل الأعمال وأشرفها وفي هذا الطريق يهون كل غالٍ ونفيس، ولنا في محمد عثمان جلال المحرر في مجلة روضة المدارس وفي الوقائع المصرية مثالاً جليلاً؛ فقد أنفق كل ما يملك في سبيل نشر ترجمته لمجموعة من القصص على ألسنة الحيوانات للشاعر الفرنسي لافونتين تحت اسم (العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ) وعلى غلافه كلمات طريفة "انظر بعينك واتقدم يا حلو وإوعى تتأخر، وإن كان بدك تتعلم اسمع كلامي للآخر".

****

الحلقة الثالثة عشر

بناء الإنسان

في وجهة نظري المتواضعة أكثر ما يميز الماضي وفرة ما صنف في علم الأخلاق والمبادئ وبناء الشخصية فنجد كتاب (الأخلاق) للأستاذ أحمد أمين وتحدثنا عن هذه التجربة المدرسية**1929**، في كتابي (مرآة التاريخ) كما شهدت العملية التعليمية كتباً أخرى مثل كتاب (التحلية والترغيب في التربية والتهذيب) تأليف حضرة سيد أفندي محمد أحد مدرسي اللغة العربية بمدرسة المبتديان والناصرية، بحسب طبعتي نظارة المعارف العمومية **1896**، **1906** وكتاب (الهداية إلى الصراط المستقيم) تأليف حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ أحمد زناتي بك المفتش بوزارة المعارف العمومية **1917**، وكتاب (الشخصية) للأستاذ محمد عطية الإبراشي والمقرر على السنة الثانية من المدارس الثانوية (الطبعة الثالثة **1938**).

وكتاب "الشخصية" رائع في أسلوبه وشامل في مضمونه ويشكل نواة لما نسميه بالتنمية البشرية في عصرنا والتي أتمنى أن تصبح مادة مدرسية ولها محتوى أكاديمي منضبط وليس هزلي يحترفه الهواة كما هو الوضع الآن لما لها من دور في بناء الشخصية ودعمها ومرانها على حل المشكلات ومواجهة



الخطوب والتحديات، ومن بين عناصر بناء الشخصية التي يتضمنها الكتاب سأتوقف عند "المشاركة الوجدانية" والتي جاءت لتعزز من مفهوم القائد (**leader**) في مقابل المدير (**manger**) وهي من التحديات التي نواجهها في أعمالنا خاصة في الجودة الطبية فيقول: "ومن الحكمة إذا كنت رئيساً أن تصل بالمشاركة الوجدانية إلى تنفيذ جميع رغباتك من غير التجاء لإظهار سلطتك وأن تفوز بطاعة مرؤوسيك من غير احتماء بالقانون". ويضيف "ومن المهارة أن تبين لمرؤوسيك غلطاتهم ومواضع ضعفهم وتسيرهم كيف تشاء بدون أن تحط من كرامتهم".

طبعاً "كيف تشاء" هذه ثقافة قديمة لا زالت سائدة فمن المفترض أن نسير جميعاً رئيساً ومرؤوساً وفق معايير محددة نعمل على بلوغها وتحقيقها للنهوض ببيئة العمل وتحسينها وليس حسب المشيئة والأهواء والارتجالية.

كاتب الكتاب حاصل على دبلوم التربية وعلم النفس من جامعة اكستر عام **1927**، وشهادة في اللغة السريانية عام **1929**، ودبلوم في اللغة العبرية من معهد اللغات الشرقية بلندن عام **1930**، وحينما عاد لمصر عين بدار العلوم ثم التفتيش والإدارة بالوزارة لن أكرر عزيزي القارئ ما قولته أنه حصاد العلم وثمرات الاستثمار في الإنسان بالتعليم والتثقيف ولكن سأنظر إليها من زاوية شروط الالتحاق بالوظائف في مصر قديماً، فتصور يا عزيزي أن هذه المؤهلات العليا جعلت الوزارة تلحقه بالعمل لديها. شتان

بين الماضي والحاضر في هذه الوجهة. حاضر وللأسف يقف فيه طلبة الدراسات العليا في مظاهرات للبحث عن عمل حكومي ولو عامل في بوفيه أو كاتب في أرشيف!!

مهلاً عزيزي القارئ كان هناك أزمة في التعيينات بالماضي أيضاً، ولكن ليس لدرجة فتح باب التطوع لسد عجز المعلمين بالمدارس بلا أجر أو نظير **20** جنية للحصة في أحسن الأحوال!!.

في عنوان صادم حملته مجلة المصور في عددها بتاريخ **1** يوليو **1938** يقول "على هامش البطالة بين المتعلمين.. شباب بالبكالوريا يسرح بأوراق اليانصيب (على غرار الفتاة الجامعية حالياً التي تبيع غزل البنات).

وتعزو المجلة الأسباب إلى أن الشاب المتعلم حتى ولو كان من حملة الابتدائية "لا يرضى إلا أن يكون موظفاً في بلد ضرب الرقم القياسي في كثرة الموظفين وأصبح نصف ميزانيته وقفاً على مرتبات الموظفين (كأنه يتحدث عن زماننا) وأن حامل البكالوريا والتي كانت تدر على صاحبها الخير "توكله الشهد بلغة المجلة" أصبحت لا تساوي في سوق الوظائف جنيهين اثنين ولا تؤهل صاحبها حتى لوظيفة "حاجب أو ساع أو فراش". لماذا هل التحول المفاجئ من أكل الشهد لبيع اليانصيب؟! تعلل المجلة ذلك بغياب الواسطة (الإرث المصري العتيد)، مما دفع حامل البكالوريا إلى "مزاحمة المشردين وأبناء السبيل" في عرض أوراق اليانصيب (لي صديق



رسب في كلية الطب ودفعته الظروف لبيع البخور وآلمني ما شاهدته من صراعه اليومي مع الشحاذين على الرزق!!).

ولكن ماذا عن جهود حكومة محمد محمود باشا صاحب اليد الحديدية؟!
تعتبر المجلة أن جهود الوزارة في تنفيذ مشروع الإقطاعات الزراعية لفريق من خريجي كلية الزراعة وإلحاق بعض خريجي كلية التجارة بالبورصة غير كاف علاوة على عجز الحكومة عن فرض نسبة معينة من المصريين من ذوي الكفاءة في الوظائف التي يشغلها الأجانب!!

من هم في مثل سني ومن مواليد الثمانينات وقبلها يتذكرون "لعبة الاستغماية ولعبة الشرطة والحرامية وكهربا والبلي والسبع طوبات" وعفواً لمواليد الألفينات فلا عهد لهم بهذا فهم جيل الألعاب الإلكترونية، فكنا ننتظم في فرق ونطارد بعضنا بعضاً. أتدري عزيزي القارئ أن هذه الألعاب وغيرها من الألعاب التي تحرك العقل وتبعث على النشاط والحيوية كانت تدرس كمادة مدرسية فنجد كتاب (الألعاب المدرسية المنتظمة)، تأليف الآنسة ترى عام **1923**، والترجمة بأمر وزارة المعارف العمومية ويضم بين دفتيه ألعاب مثل (الثعلب والكلب، الكنجرو، امرأة الفلاح، الدب وسط الدائرة، الرقص الموسيقي، الخيل والفوارس، القفز على خطوط الطباشير وغيرها)، لذا أقترح أن نستفيد من هذه التجربة في استغلال بعض الألعاب

الإلكترونية الحالية أو استحداث ألعاب إلكترونية تخصصية لتكون وسيلة من وسائل التعليم والتثقيف والتربية.

لقد شهدت الحركة الثقافية في مصر منذ مطلع القرن المنصرم اهتماماً كبيراً بتعليم المرأة وتنشئتها تنشئة سليمة وبناء شخصيتها، وحتى تعليمها فنون الطبخ وتحدثنا عن ذلك في حلقة ماضية وحتى الأشغال اليدوية البسيطة فنجد كتاباً رائعاً لا يزال عند جداتنا هو (الفتاة والإبرة) لايرين كريستوف (دبلوم من باريس ومدرسة التطريز والخياطة والتفصيل بمدرسة الثقافة النسوية بالقبة) ومحمد طلعت (بوزارة المعارف العمومية) والكتاب وجدته لدى باعة الكتب القديمة طبعة وزارة المعارف العمومية لعامي **1939** و**1944** ، مما يدل على استمراريته لفترة طويلة.. لن نعيد في هذه الحلقة جهود قاسم أمين وهدى شعراوي (قد تناولت جهودها بشيء من التفصيل في كتابي على هامش التاريخ والأدب) وغيرهم ممن تحفل الكتب بسيرتهم وجهودهم ولكننا سنسلط الضوء على جهود طواها النسيان وتجارب طريفة مؤثرة في أزمنتها الغابرة تحتاج لإعادة قراءة وتسليط الضوء عليها.

سنستعرض نموذجين:

النموذج الأول: تربوي من وزارة المعارف العمومية ويمثله الأستاذ يوسف نجيب الحاصل على الدبلوم في التدريس والليسانسية في القوانين والموظف



بنظارة المعارف العمومية حيث يظهر من تقديمه لكتابه (تهذيب الفتاة) الصادر في يوليو **1914**، والذي وقع تحت يدي أن له مؤلف آخر في التربية الخلقية كان مقرراً على مدارس الطالبات في هذا التوقيت.. وبنظرة فاحصة وسريعة على كتاب (تهذيب الفتاة) نجد دعوة للتحلي بالفضائل وأداء الواجبات نحو الوالدين والأقارب والأخوات. فمثلاً عند حديثه عن محبة الوالدين يحكى عن إحدى البنات "لا تنفك عن تظاهرها بالانعطاف والمحبة لأبيها ووالدتها"، لكن عند اختبار هذه المحبة على مسرح الواقع والفعل حينما يطلب منها أبوها ووالدتها شيئاً "كانت تقطب وجهها ولا تطيع الأمر عن طيب نفس"، ومن هنا يخلص لدرس تربوي هو أن "المودة تظهر بالأعمال لا بالمعانقة وزخرفة الأقوال"، وحول واجب الابنة نحو والدتها فيكون بالتبكير في الاستيقاظ صباحاً والإسراع في ارتداء الملابس و"تنظيم فراشها وحجرتها ووضع كل شيء في موضعه"، والعودة من المدرسة للمنزل في التو وعدم تقذير ملابسها أو تمزيقها والعناية بالأخوات الأصغر سناً كأنها والدتهم.

ولا يخلو الكتاب من الاستشهاد بالحكم المأثورة وتزيين النصائح بزخرف القول ووجوب المحافظة على المظهر والجوهر، مثل قوله عند افتخار الابنة بأهلها "أحب أهلي" فيدعوها لتذكر أن ذلك معناه أنها " مستعدة للتضحية بكل مرتخص وغالٍ في سبيل رفع أسرتها إلى ذروة الشرف والمجد"، وفي

قوله: "عليكن أيتها الفتيات أن تكن أدبيات غير سيئات الأخلاق ولا تحضرن المائدة وأيديكن قذرة ورؤوسكن شعثا ولا تنسين الأدب في كل محفل".

النموذج الثاني: مجتمعي تمثله الأستاذة (ملكة سعد) سيدة قبطية من وسط اجتماعي أرستقراطي أو على الأقل فوق المتوسط لأننا وللأسف لا نمتلك معلومات كافية عنها غير كونها صاحبة مجلة (الجنس اللطيف) وهي مجلة أدبية اجتماعية تُعنى بالمرأة صدرت عام **1908**، وقد كتب لها الاستمرار حتى حين.

ومن أشهر دعوات هذه المجلة والتي لاقت رواجاً مجتمعياً هو إنشاء "جيش الفضيلة" لحماية المرأة من التحرش ولملكة سعد كتاب طريف في مضمونه سيكون محور حديثنا هو كتاب (ربة الدار) وسأعتمد في استعراضه على الطبعة الثالثة **1921** والتي أتيحت لي لكن تاريخ الكتاب يعود لقبل ذلك بكثير فقد جاء مقروناً بتقريظ تحمله صفحاته الأولى يعود لفبراير **1915** من وضع كبير أمناء الحضرة العلية السلطانية جاء فيه "مؤلفك المستطاب رفع إلى صاحب العظمة مولانا السلطان (يقصد السلطان حسين كامل) فكان موضعاً للاستحسان والشكر عند عظمته "، أما الإهداء فكان إلى ابنتها "أهدي إليك مؤلفي الذي يسرني أن يكون هدية كل والدة إلى ابنتها إذ فيه ما يجب على الفتاة في منزلها أن تدركه"، كما حمل الكتاب أبيات من



الشعر لرياض اسكندر تحت عنوان "آمالنا فيك" يقول فيه "ربة الدار والمقال ثمين فاسمعي جوهر الكلام الثمين".

وقد عبرت ملكة عن رسالة الكتاب وشدة اعتزازها بدور المرأة في المجتمع وفي رفعة الأمم ونهضتها بقولها "إذا كان لمدنية الأمم مقياس تقاس به فإنما هو المرأة"

يتناول الفصل الأول من هذا الكتاب طور تحول المرأة من بيت أبيها حيث "المرح واللعب واللهو" إلى طور المسؤولية باعتبارها ربة البيت الذي "يقوم عليها سياسته ونفعه وضره" مما يستجوب التحلي بمكارم الأخلاق والبساطة وأن العاقلة تحتكم للمثل القائل "على قدر بساطك مد رجليك" ذلك أن السعادة ليست في الغنى "فكم من أسرة غنية تعيش في بؤس وشقاء وكم من أسرة فقيرة تعيش في نعيم السعادة وسعادة النعيم" (كما جال بخاطرك عزيزي القارئ مشهد طريق السعادة للراحل نجيب الريحاني في فيلم لعبة الست). ومن الصفات الأخرى حسن التدبير والتجاوز فالسيدة العاقلة تتجاوز عن الهفو والسهو والسيئة ولا تكون كثيرة اللين مع الخدم فيحدث الإهمال والكسل، و"إنما يجب أن تضع كل شيء في موضعه" (نعم كما قرأت عزيزتي القارئة فلا يخلو بيت من خادم أو أكثر لا تنس أننا عام **1915**).

فضلاً عن ضرورة تحلي المرأة بالقدر الكافي من المعرفة التي تعينها على العمل بشكل منفرد "فلا تقف معرفتها عند حد الملاحظة وإعطاء الأوامر" للخدم إضافة لتزويد زوجها بالنصائح الحياتية فضلاً عن إحاطتها بالمعلومات عن تربية الأطفال لتقويم اعوجاجهم وهدايتهم كذلك تمتع المرأة بأصالة الرأي وطلاقة المحيا فلو جمعت بينهما "أصبح بيتها فردوساً".

وفي الفصل الثاني تناقش الاقتصاد المنزلي وتعرفه بأنه "تحصيل أكثر ما يمكن من النفع بأقل ما يمكن من النفقة"، وبحسن إدارة ربة البيت تستطيع أن "توجد بدل الشيء أشياء وتخلق من الفقر غنى"، وأن تعرف المرأة دخلها وخرجها وأن تشتري بالجملة ومن أجود الأصناف وأنسبها ويتخلل الكتاب نصائح للحفاظ على الصحة والنظافة وأن "للتنظيف طريقتان حسنة ورديئة فبالحسنة ينظف القذر وبالرديئة يتسخ المراد تنظيفه"، وضرورة مراعاة قيمة المال والوقت والتحلي بالنشاط، فقد "مضى زمن النوم الطويل وزمن القعود والتواني".

من ألطف ما جاء في الكتاب قواعد ترتيب البيت داخلياً ومراعاة "البساطة مع النظافة والذوق السليم والفكر الراجح وحسن التبصر"، بما يضمن أن البيت على درجة من "الكمال والجمال".

وانطلاقاً من هذه القاعدة تضرب مثالاً ببيت متوسط "مكون من بهو وغرفة نوم ومكتب وغرفة استقبال وغرفة مائدة وأخرى للجلوس ومطبخ



وخزانة للمؤن وحمام ومرحاض" (هذا بيت متوسط عزيزي القارئ سنة **1915** تصور!!) .

وتمضي الأستاذة ملكة في وضع لمساتها واقتراحاتها على كل جزء من البيت لكن أطرفها المكتب والذي من اللازم أن يكون منعزلاً عن باقي الغرف والضوضاء ومن محتوياته "مقياس للحرارة ترمومتر" (تصور سيدي القارئ أن في عصرنا صيدليات لا يوجد بها ترمومترات وهي أساسية لحفظ الدواء فيما كان في عام **1915** ترمومتر بالمكتب المنزلي!!) وتقترح الأستاذة ملكة كتباً متنوعة بالمكتبة: صحية: مثل "تدبير صحة الأطفال للدكتور عبد العزيز بك نظمي والإسعافات الوقتية ليوسف بك بشتلي" وخلقية: مثل "كليلة ودمنة وأدب الدنيا والدين وكتاب الأخلاق للدكتور طه حسين (؟) وسر تقدم الإنكليز الأنجلوسكسونيين للمرحوم أحمد فتحي باشا زغلول" واجتماعية: مثل "المرأة الجديدة وتحرير المرأة لقاسم أمين والاقتصاد السياسي لحافظ بك إبراهيم وخليل مطران (هو كتاب ترجمه شاعر النيل) ودينية: مثل القرآن والتوراة وشروحهما (لاحظ أن الكاتبة مسيحية ورغم ذلك في وضع الكتب الدينية لم تضع كتابها الديني ربما خشية التحيز. إنها روعة هذا الزمان الجميل) ولم تنس أن تذكرنا بوجوب رش الكتب بالنفتالين لصيانتها و"عدم وصول العث إليها".

ما أثار فضولي هو اختيارها لبعض عناوين الكتب دون غيرها لتكون نواة للمكتبة المنزلية مما دعاني للبحث لدي بين جنبات الكتب القديمة في هذه الفترة فوجدت أن عددًا من هذه الكتب كان من ضمن الكتب المدرسية المقررة على الطلبة مما يجعلها سهلة المنال إضافة لقيمتها الكبيرة فنجد كتاب كليلة ودمنة تأليف بيديا الفيلسوف الهندي وترجمه إلى العربية عبد الله بن المقفع طبعة نظارة المعارف **1912** وقد حمل غلافه أمر نظارة المعارف بطبعه وتدريسه منذ **10** يونيه **1902** نمرة **896** وكتاب أدب الدنيا والدين وقد حمل غلافه في طبعته الخامسة **1909** الخاصة بنظارة المعارف العمومية "تأليف العالم العلامة الحبر الفهامة الأمام الكبير المحقق الشهير أقضى القضاة أبي الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى الماوردى" فيما جاء كتاب (الموجز في علم الاقتصاد) تأليف (بول لروا بوليو) في طبعة نظارة المعارف العمومية **1913** حيث قام بترجمته كما أشرنا سالفاً حافظ ومطران بأمر وزير المعارف أحمد حشمت باشا..

أطرف ما جاء بالكتاب ما نطلق عليه "قواعد الإتيكيت" مثل عدم الكلام والفم ممتلئ بالطعام أو إصدار صوت مسموع أثناء المضغ وعدم التهام آخر ملعقة من الحساء أو الطعام فلا يليق أن "تتركي صحفتك نظيفة"!! وعدم الإسراع في الأكل مما يعطي مظهر الشره وعدم أكل الثوم والبصل وعدم نهش الخبز، بل تقطيعه قطعاً لكن مع عدم وضعها بالحساء والالتزام



بأكل الخضر بالشوكة وليس الملعقة وإذا سقطت السكين أو الشوكة على الأرض فلا ينبغي الانزعاج أو طلبها من الجارة على المائدة، بل طلب غيرها من الخادم.

ربما يراودك سؤال عزيزي القارئ: لماذا كل هذا الزخم في عرضك واستعراضك لكل هذه الكتب وما تحمله من تجارب أكل عليها الدهر وشرب؟! لنعي أن مواطن القوة في الماضي كانت الاستثمار في المعرفة والثقافة وبناء الإنسان وتهذيب سلوكه وتعويده أن لكل شيء قواعد وأصول ونتاج ذلك بالطبع إنسان قادر على إدارة حياته والتأثير في محيطه ومجتمعه بشكل إيجابي ومؤثر وعدم انتشار الفهلوة والسوقية والإسفاف وكلما كان البيت مناسباً ونظيفاً ومرتباً كانت التنشئة راقية ومتزنة لذلك فاتجاه الدولة الحالي نحو تشييد مدينة الأسمرات للقضاء على المناطق العشوائية خطوة في الاتجاه الصحيح لبناء جيل يليق بمصر وسمعتها ومستقبلها.. الماضي ليس مثالياً دائماً لكن نستطيع أن نجد فيه شخصيات بجهود ذاتية حملت مشاعل النور لنهضة مجتمعاتها سواء أكانت تجاربها كتب لها الصمود أو تهاوت.. مشاريع من الماضي تبنتها حكومات، ثم اختفت واندثرت نستطيع إحياءَها وتطويرها بأدوات عصرنا ودراساته، ولكن المهم في كل هذا أن تكون مشاريعنا الوطنية مستمرة وهدفها دائماً بناء الإنسان المصري وتنمية قدراته ومهاراته بأسلوب علمي ومتحضر.

الحلقة الرابعة عشر

أدب الرحلة

شاب مصري في التاسعة والعشرين من عمره يخوض رحلة وصفت بالغريبة استخدم فيها حماراً للتنقل من منطقة الجيزة وحتى أسوان لدراسة عادات وثقافات كل مركز وقرية ومدينة في طريقه.

كانت الرحلة مادة دسمة للسخرية والمزاح، ولكن غاب عن جل من مزح وسخر أن لمصر في الماضي باع طويل فيما يسمى (أدب الرحلات) والذي انقرض بمضي الوقت مع انتشار الوسائل الإعلامية التي تحفل ببرامج تدور بنا حول العالم ونحن في أماكننا وشبكات الإنترنت التي لا تحتاج فيها سوى ضغطة زر ليكون أمامك ملايين النتائج حول أي مدينة أو قرية أو طائفة سكانية تود التعرف عليها.

كما أن توقيت رحلة هذا الشاب لم يكن موفقاً فقد جاءت في أثناء جائحة كوفيد- **19**والتي تنادي بالتباعد المجتمعي فارضة قيوداً على التنقل والرحلات.

لندلف الآن من أبواب التاريخ ونطرق بوابات رحلات الماضي. وإذا ذكرت الرحلات في العهود الماضية لا يمكن أن نغض الطرف عن الرحالة الأمير محمد علي توفيق. ربما لا يعرف الكثيرون عن الأمير سوى كونه ولي عهد



المملكة المصرية وانحيازه للإنجليز وأنه كان خيارهم عندما هموا بإجبار الملك فاروق على التنازل عن الحكم في حادث **4** فبراير الشهير ويمكن العودة في ذلك لكتابي تأملات بين العلم والدين والحضارة. ثمة وجه آخر للأمير العجوز المصاب بالصرع والغير متزوج وهو كونه تواقاً للرحلات حول العالم وتسجيل مشاهداته في كتب قيمة من أبرزها:

"رحلة إلى أمريكا الشمالية"و"رحلة الصيف إلى البوسنة والهرسك"و"الرحلة اليابانية "و"رحلة إلى أمريكا الجنوبية" ورحلته للحجاز عام **1939.**

و"الرحلة الشامية"و"رحلة إلى أستراليا" ومن أطرف ما لاحظته في أحاديث الأمير محمد علي كان سعيه الشديد لإظهار التفرد في الثقافة والمعرفة الشاملة والاستنتاجات الارتجالية فتجده عزيزي القارئ يعود بأصول محمد علي باشا الكبير، مؤسس مصر الحديثة، لديار بكر، على خلاف الشائع من كونه ألباني، وذلك في تصريح شهير له لمجلة "المصور" عام **1949**، كما يرجح أن أصول الهنود الأمريكيين من "اليورجوت" ومن "سكان شمال آسيا"وأنهم هاجروا إلى هذه البلاد عن طريق كامتشتكا وبالتالي فلهم السبق في اكتشاف أمريكا قبل كريستوفر كولومبس!!

وكما كان الأمير طريفاً في حياته فقد لاحقته الطرافة رغماً عنه في أوقات كثيرة!!

هل سمعت عزيزي القارئ عن المثل القائل "عواد باع أرضه " هذا المثل ارتبط أيضاً بالأمير محمد علي ولكن عواد لم يبع أرضه إنما العكس الذي حدث فعناني أحمد عواد الفلاح بكفور نجم دخل في خصومة ومشاحنات مع تفتيش دائرة الأمير محمد علي انتهت بمصرعه. كما ارتبط الأمير أيضاً بقصة طريفة مع دخول السيارات لمصر وخوف الحيوانات منها حينما اصطدمت سيارته بعربة كارو تحمل أخشاباً عام **1901** مما أدى لتهشمها وإصابته.

ولا يمكننا أن ننسى رحلة حج خديوي مصر عباس حلمي الثاني إلى الأراضي المقدسة عام **1909** والتي سجلها محمد لبيب البتنوني تحت اسم "الرحلة الحجازية" وزود كتابه بلقطات نادرة ألتقطها اللواء إبراهيم رفعت باشا وعدداً من الخرائط أعدها اللواء محمد صادق باشا كما حوى الكتاب معلومات شيقة عن الحجاز والقبائل فيه والمحمل المصري والتكية المصرية في مكة والمدينة. وللبتنوني في أدب الرحلة كتب أخرى مثل "رحلة الصيف إلى أوروبا" و"الرحلة إلى أمريكا".

وقد خلد أمير الشعراء أحمد شوقي ذكرى هذا الحج باعتباره شاعر القصر بقصيدة (نهج البردة) والتي تأتي على غرار بردة الإمام البوصيري فيقول في مطلعها:

" ريمٌ عَلى القاعِ بَينَ البانِ وَالعَلَمِ



أَحَلَّ سَفكَ دَمي في الأَشهُرِ الحُرُمِ
رَمى القَضاءُ بِعَينَي جُؤذَرٍ أَسَداً
يا ساكِنَ القاعِ أَدرِك ساكِنَ الأَجَمِ"

ومن رحلات أولي الأمر إلى رحلات صفوة المجتمع في مصر نمضي فنجد أحمد حسنين باشا خريج أكسفورد وصاحب المحاولات الأولى للطيران والبطل الدولي في لعبة الشيش يخوض عام **1920**، تجربة جريئة لاستكشاف الصحراء الغربية برفقة السيدة الإنجليزية (روزيتا نوريس)، حيث تمكنا من اكتشاف واحتي العوينات وأركنو للمرة الأولى ولقب بعدها بالرحالة العظيم وقد أقام له الملك فؤاد حفل تكريم بفندق سان استيفانو بالإسكندرية عام **1923** أنشد فيه أمير الشعراء أحمد شوقي أبياتاً تقول:

"أَكبَرتُ مِن حَسَنَينٍ هِمَّةً طَمَحَت
تَرُوم ما لا يَرومُ الفِتيَةُ القُنُعُ
وَما البُطولَةُ إِلّا النَفسُ تَدفَعُها
فيما يُبَلِغُها حَمداً فَتَندَفِعُ
وَلا يُبالي لَها أَهلٌ إِذا وَصَلوا
طاحوا عَلى جَنَباتِ الحَمدِ أَم رَجَعوا
رَحّالَةَ الشَرقِ إِنَّ البيدَ قَد عَلِمَت

بِأَنَّكَ اللَيثُ لَم يُخلَق لَهُ الفَزَعُ"

وحسنين باشا عزيزي القارئ هو نفسه رئيس الديوان الملكي في عهد فاروق والزوج العرفي لأمه الملكة نظلي زوجة الملك فؤاد الثانية!.

ومن الرحلات الشهيرة نأتي على ذكر رحلة المفكر والصحفي اللبناني (جورجي زيدان) إلى أوروبا عام **1912**، والتي ضمت فرنسا وإنكلترا وسويسرا ونشرت في كتاب عام **1923**. وجورجي زيدان هو مؤسس مجلة الهلال في مصر وصاحب روايات تاريخ الإسلام الشهيرة والتي صورت التاريخ الإسلامي للنشء كما لو كان حلقات من الصراع والمكائد وسلسال من الدماء المتدفقة!!

بالطبع الطبقات الشعبية كان لها إسهامات في أدب الرحلات وإن بدت بسيطة أحياناً؛ فنجد كتاب (رحلة إسماعيل في جميع المحافظات وعواصم المديريات) لإسماعيل محمد مصطفي وقد صدر عام **1927** وإسماعيل كما يعرفنا بنفسه في كتابه من الفيوم ويعمل بالتجارة وقد كتب كتابه لإعلاء ذكر أبيه ويشمل الكتاب خريطتين للوجه البحري والقبلي ومعلومات عن الشوارع والأحياء وخطوط الترام والسكك الحديدية والتلغراف وهي الصورة البدائية التي كان عليها أجدادنا في معرفة الطرق والمسارات ولنحمد الله على ما وصلنا إليه من تقدم وخرائط جوجل ونظام الجي بي اس على هواتفنا اليوم. من الكتاب نستطيع أن نتعرف على معلومات طريفة منها



أن عدد سكان القاهرة عام **1917** كان **800,000** والإسكندرية **445,000** وأن إحصاء القطر المصري وصل عام **1927** إلى **14,168,756** نفساً!! .

لم تقتصر رحلات الطبقات الشعبية الوسطى والعليا على محافظات مصر بل نجد محمد ثابت المدرس بالمدارس الثانوية يقوم في صيف كل سنة برحلة حول العالم ويسجل مشاهداته ومن كتبه: "الجنس اللطيف في مختلف بقاع الدنيا أو نساء العالم كما رأيتهن **1940** "و "جولة في ربوع أستراليا بين مصر وهونولولو **1936**" و" جولة في ربوع آسيا بين مصر واليابان **1932**"و"جولة في ربوع أفريقيا بين مصر ورأس الرجاء الصالح **1933**" و"رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها **1946**".

لا يخلو أدب الرحلات وصناعه من مآرب أخرى منها ما هو سياسي، فنجد كتاب محمد حسنين مخلوف في رحلته مع رئيس الوزراء علي باشا ماهر للسودان عام **1941**، والذي حمل عنوان "أسبوعان مع علي ماهر في السودان " حاملاً فروض الطاعة والولاء للملك فاروق. ومنها ما هو ديني كالرحلة اليابانية الصادر عام **1907** للشيخ (علي أحمد الجرجاوي) مؤسس صحيفة الإرشاد ورئيس جمعية الأزهر العلمية والذي قام برحلته لليابان عام **1906** للمشاركة في مؤتمر للمقارنة بين الأديان واختيار أصلحها كدين رسمي للإمبراطورية وقد أبلى الشيخ بلاءً حسناً بجهوده الشخصية لكن

الخلاف بين اليابانيين حال دون الاستقرار على دين محدد كما أهدى الشيخ طنطاوي جوهري كتابه (التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم) إلى الميكادو ومؤتمر الأديان الياباني عام **1906**.

السؤال الذي يتبادر للذهن عزيزي القارئ؟

لماذا كانت اليابان وجهة لكل هؤلاء الرحالة من مصر وفي وقت مبكر كهذا؟ تتلخص الإجابة في أن التجربة المصرية كانت ملهمة لليابان في بداية طريقها نحو النهضة حين زارت بعثة من الساموراي المحاربين مصر في عهد الوالي محمد سعيد باشا عام **1862**، وأبدوا دهشة كبيرة من مستوى النظافة في مصر ووجود السكك الحديدية بها والتي تعمل بسرعة فائقة لكن التفوق في السرعة سرعان ما انتقل لليابان التي أذهلت العالم بانتصار مدوٍ على روسيا بين عامي **1904-1905**، لتخرج كقوة آسيوية لا يستهان بها مما جعلها قبلة الباحثين من مصر للوقوف على أسباب النهوض والتقدم وقد تغنى شاعر النيل حافظ إبراهيم بهذا النهوض والانتصار فكتب رائعته (غادة اليابان) والتي يقول في مطلعها:

"لا تلمْ كفّي إذا السِّيف نبا. صحّ مني العزمُ والدهرُ أبى.

رُبّ ساعٍ مُبْصرٍ في سعيهِ. أخطأَ التوفيقَ فيما طلبا"

كما كتب الزعيم مصطفى كامل كتابه عن اليابان الحديث تحت عنوان (الشمس المشرقة) ليحلل أسباب إخفاقنا وأسباب نجاحهم في التحول لحياة



نيابية سليمة من دستور عام **1889** ومجلس للنواب وأحزاب وأوجه التقدم في النواحي الإدارية والتعليمية والصحفية باليابان.

نعود مجدداً للتجارب الشعبية في أدب الرحلات

هل أصولك من الأرياف عزيزي القارئ؟! لو كانت الإجابة بنعم فحتماً ستجد أن الحاج لا يتم حجته إلا حينما يعلن لجيرانه أجمعين عنها برسم طيارة أو باخرة على واجهة منزله وتزييلها بالحج المبرور والذنب المغفور للحاج فلان أو الحاجة فلانة، لذلك لا تتعجب عزيزي القارئ إن قلت لك أن أكثر ما شاهدت من كتب قديمة تقع تحت تصنيف أدب الرحلة بأقلام الفئات الشعبية كانت جميعها تخليداً لذكرى قيامهم بفريضة الحج ومن أطرف ما قرأت منها كتاب (رحلتي إلى الحجاز) لحسن حسن خرسا "خامسة ثانوي بمعهد الإسكندرية" والصادر عام **1934** والذي جاء إهداؤه موجهاً إلى حضرة الزعيم الاقتصادي (طلعت باشا حرب) "الذي خطى بالبلاد في هذه الأيام الأخيرة خطوة واسعة في سبيل تقدمها ورفع مستواها المادي بين الأمم المتمدينة"

غريب ما علاقة طلعت حرب بالحج؟!!

العلاقة في منجزات طلعت حرب الذي أنشأ شركة مصر للملاحة البحرية عام **1934** وكان من بواخرها الباخرتان (كوثر وزمزم) واللتان شاركتا في نقل الحجيج بين ميناء السويس وجدة ويحكي خرسا عن مدى متابعة

طلعت حرب لهذا المشروع باهتمام بالغ ومعاينته ومشاهدته لنظام العمل على الباخرة "فيقر عينا ويهدأ بالا"، ولكن سبحان من له الدوام فمصير زمزم وكوثر كان كمصير صاحبهما سواء بسواء، فقد أدت الحرب العالمية الثانية إلى أزمة ببنك مصر وأجبر طلعت حرب على الاستقالة كما استخدمت الباخرتين في الأغراض العسكرية مما أدى لتدميرهما في غالب ظن الباحثين.

تعطينا أيضاً رحلة خرسا معلومات طريفة عن عدد الحجاج عن طريق البحر والذي يقدره بأربعة وثلاثين ألفاً والضعف عن طريق البر ليصل إجمالي الحجيج إلى مائة ألف حاج من بينهم "أمراء الهند ذوي الثروة الطائلة والمال الوفير"!!

كان أدب الرحلات في بؤرة اهتمام وزارة المعارف العمومية، فنجد كتاب (مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) وقد عمل على تهذيبه وضبط غريبه وأعلامه أحمد العوامري، بك المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف ومحمد أحمد جاد المولى بك المفتش بوزارة المعارف **1934**،

ما رأيك عزيزي القارئ في أدب الرحلات؟! وكم تتوقع أن يتجمع لديك من معلومات عن أصحابها وما حملوه من تجارب ومشاهدات؟ وهل في مقدورك أن تنقل تجاربك ومشاهداتك للآخرين لقد بدأت بنفسي وكتبت



رحلتي مع كوفيد 19 في كتاب إلكتروني في جزئين على Smash words وعلى قناتي على اليوتيوب.

ولمؤسسة إدراك التابعة لمؤسسة الملكة رانيا للتعليم والتنمية بالأردن دورة مجانية في أدب الرحلة ستعينك بالتأكيد في هذه المهمة الرائعة.

****

الحلقة الخامسة عشر

آفة اصطناع التريندات

نحن من نصنع التريند ونشعل زناده.

لو تركناه لما نما واستفحل وأخذ أكثر من حجمه.

بينما أبحث بين جنبات الكتب القديمة وجدت كتيباً صغيراً يحمل تحذيراً للمسلمين والمسلمات من مدارس النصارى والمستشفيات!!

دعوة غريبة خاصة أني حينما بحثت عن تاريخ الكتاب والغير مؤرخ في نسخته القديمة في أرشفة بعض المكتبات وجدت أنه صادر عام **1911**.

بالطبع التاريخ يشي أننا في حقبة ليبرالية مفترض أن تتصدى لهذا الفكر الإقصائي لشركائنا وأحبائنا في وطننا العزيز وأن تتعالى الأصوات مثلما نسمع اليوم بوجوب توجيه تهمة ازدراء الأديان.

لكن لك أن تتخيل ما كانت عليه مصر في عام **1911** عام واحد فقط من تاريخها.

فحينما عدت لأحداث هذا العام تحديداً وجدتها تقطر أموراً متعاقبة تتأتى جللاً مزوجاً وتتضاءل إلى جانبها مثل هذه الدعوات فمصر الخديوية تحت سلطة الخديوي عباس حلمي الثاني الذي دخل في وفاق ودي مع الإنجليز



ووصول المعتمد البريطاني الجديد هربرت كتشنر لمصر وكان مشهوراً بقدرته على التحدث بالعربية وبساقيه الطويلتين وحوله فيما كانت تعاني الحركة الوطنية المصرية في العام ذاته من التضييق عليها؛ فحبس زعيم الحزب الوطني محمد فريد لمدة ستة أشهر لمجرد كتابته مقدمة لديوان وطنيتي للشيخ علي الغاياتي عضو الحزب. كما شهدت مصر أول حادث اغتيال في التاريخ الحديث قبلها بعام واحد وهو حادث اغتيال ناظر النظار بطرس باشا غالي بيد شاب مسلم هو الصيدلي إبراهيم ناصف الورداني، وما تبعه من الدعوة لمؤتمر قبطي عام **1911** مما جعل مصر على صفيح ساخن كما شهدت الجامعة المصرية انفتاحاً أكثر على العالم مع توجهها بابتعاث ثلاثة أطفال مصريين إلى إيطاليا مقابل خمسة قروش يدفعها ولي الأمر ليتلقوا كافة مراحل التعليم بأوربا ويعودوا للتدريس بالجامعة المصرية الناشئة.

نعود إلى دعوة المقاطعة مرة أخرى لنعرف من صاحبها؟

الغريب أن صاحب هذا الفكر هو شيخ يدعى أحمد علي المليجي الكتبي الأديب التحريريّ ومؤسس الحزب الخيري، وصاحب المطبعة والمكتبة العامرة المليجية بجوار الرياض الأزهرية تصور عزيزي القارئ صاحب بوق سياسي اجتماعي وخلفية دينية ووسيلة إعلامية ويتفوه بمثل هذه الدعوات والتي افتتحها بنظم من الشعر يقول فيه:

"إليكم بني ديني القويم وملتي .. أقدم تحذيري بقصد الهدية
ولا أرتجي منكم له ثمناً سوى .. قراءته من بدئه للنهاية
ولكن بإمعان وحسن تدبر .. لما قد حواه من جليل النصيحة"

فهل من مدكر أو مكترث لها أو ثمة ضجيج حولها؟!.

الإجابة لا، ويكفي أن مدرسة راهبات نوتردام ديزابوتر بمدينتي الزقازيق قائمة منذ عام **1882** ولا تزال حتى يومنا هذا تؤدي دورها وموضع احترام وتقدير من الطلاب وأولياء أمورهم.

في المقابل

إذا بحثت عن اسم الرجل اليوم أو حزبه لن تجد سوى بضعة أسطر على المواقع السلفية المتشددة بعض الشيء لا تعطيك معلومة تاريخية موثقة أو ذات فائدة تذكر عنه أوعن حزبه المغمور أو حتى تاريخ هذه الدعوة بدقة وإذا بحثت عن تداعيات دعوته هذه لن تجد معارك فكرية قامت حولها أو حتى مجرد التفات لها.

بالطبع هذا الكتاب ليس الأول في هذا المذهب فقد سبقه كتاب (إرشاد الحيارى في تحذير المسلمين من مدارس النصارى) للشيخ يوسف النبهاني والصادر عام **1904**.



الخلاصة لابد وأن نضع الشيء في حجمه الصحيح كي نحمي نسيج المجتمع من التشرذم والحمية الزائدة والتعارك حول ما لا فائدة منه أو نفع أو نتيجة والمثال على ذلك تضخيم مسألة إبراهيم عيسى وانتقاده لقراءة القرآن في الصيدلية وأن يكون للمرجع العلمي، والفيلم الوثائقي الأولوية للصيادلة جعلت من اللا قضية قضية فمن منا لا يفتتح أو يختتم يومه بالقرآن فهل نحتاج في ذلك لمن يأمرنا أو ينهانا أم نفعل ذلك من قبيل التقرب إلى الله؟!.
لذا أتمنى ألا نرفع من قيمة تصريحات غير مسؤولة لبؤرة الأحداث مع أن مآلها الصحيح هو التجاهل وسيغمرها التاريخ وتبتلعها رياح النسيان.
أعيدها مرة أخرى تجاهل هذه المسائل هو الحل وهو الكفيل بالقضاء عليها ولا ننسى حكمة قول الله عز وجل: (فَأَمّا الزّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأمّا مَا يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأمْثالَ).

****

السيرة الذاتية

د.محمد فتحي عبد العال
كاتب وباحث وروائي مصري
صيدلي وماجستير في الكيمياء الحيوية
دبلوم الدراسات الإسلامية من المعهد العالي للدراسات الإسلامية

له عدد من المؤلفات:

1- كتاب تأملات بين العلم والدين والحضارة في جزْأَين

2- كتاب مرآة التاريخ

3- كتاب على هامش التاريخ والأدب

4- كتاب جائحة العصر

5- كتاب حكايات من بحور التاريخ

6- كتاب حكايات الأمثال

7-رواية ساعة عدل

8-رواية خريف الأندلس

9-المجموعة القصصية في فلك الحكايات



محتويات الكتاب



تم بحمد اللّه



بحث تاريخي

صفحات من التاريخ الأخلاقي بمصر

د. محمد فتحي عبد العال

الطبعة الأولى
1443 هـ 2021 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com